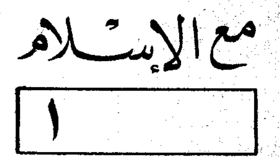
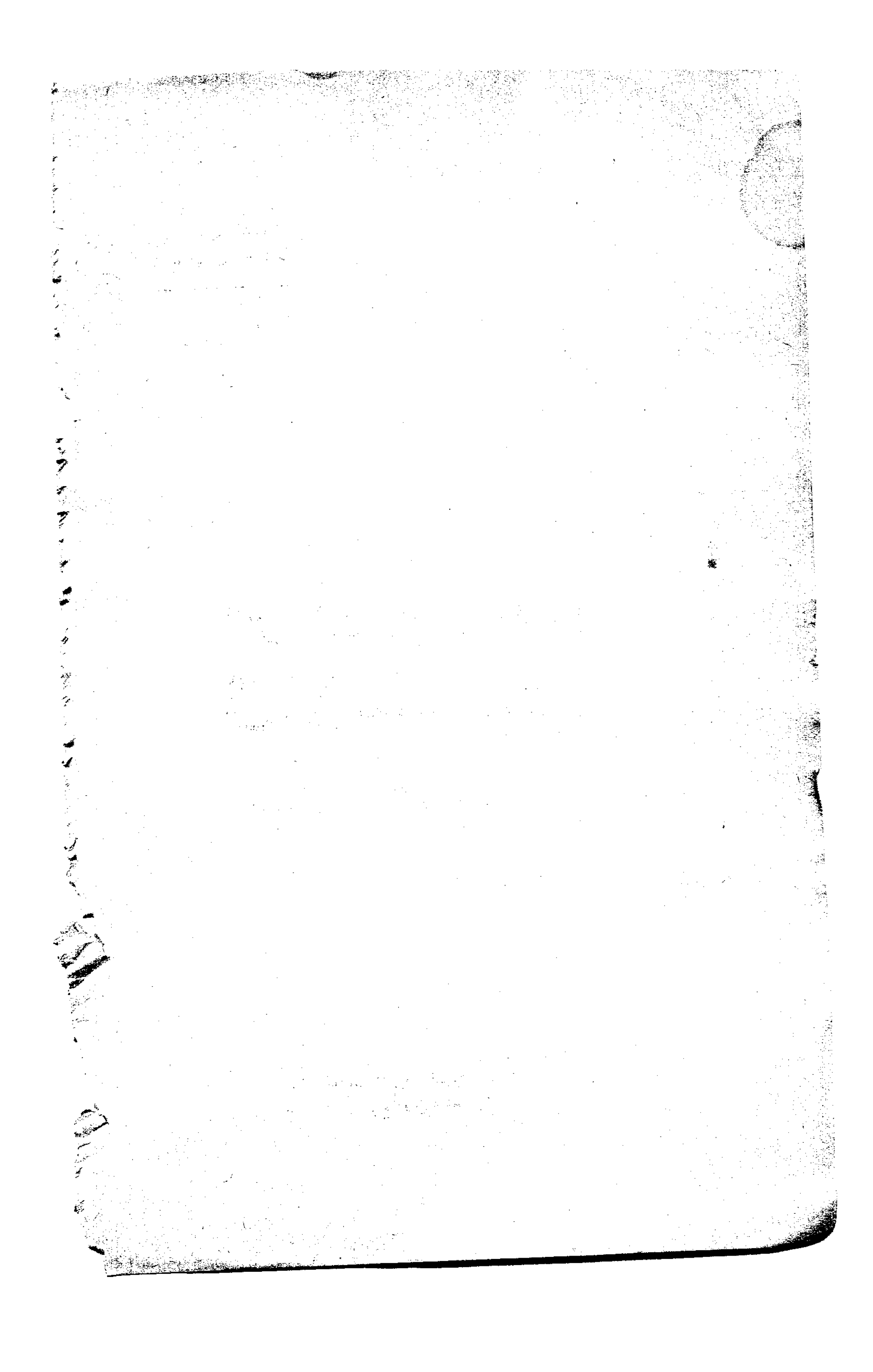


من قضايا الرأى في الإسلام

تأليف : أحمد حسين

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
فرع الصحافة



الى شهيد العروبة والاســلام
الدكتور مصطفى الوكيل

الى ابنائنا من الجيل الجديد
الذى نعلق عليــه الآمال

أهـــدى هذه الصفحات المجيدة
من حضارة الاســــلام

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

من قضــــايا الرأى فى الاســـلام

لولا كلمة ((من)) لما قبلت أن أقدم هذا الكتاب تحت هـــذا العنوان ، فقضايا الرأى فى الاسلام تملأ مئات المجلدات ، ويحتاج ايجازها الى أكثر من كتاب ضخم ، ولكن حرف ((من)) يفيد التبعيض، فاصبح ((من قضايا الرأى فى الاسلام)) يعنى بعض هذه القضايا ، كما يعنى الاجتزاء فى سرد أحداث كل قضية على حدة .

وتكون فائدة هذا الكتاب ، أنه من نوع فاتح الشهية .

ولا ندعى أن شأننا فى هذا الكتاب ، يمكن أن يزيد على ذلك، فهو ليس كتاب استيعاب ، أو دراسة عميقة ، وانما هو استعراض سريع وموجز لبعض ملامح الرأى والفكر فى العالم الاســـلامى ، لنكشف للقارىء عن مدى تلاطم أمواج هذا البحر العجاج من الفكر الاسلامى عبر القرون . ولقد وصلت سخونة بعض قضايا الرأى الاسلامى الى حد الاشتعال فكانت القضايا والاصطدامات العنيفة، وسفك الدماء ، بينما ظل السواد الأعظم من هذه القضايا فى دائرة الفكر المحض والمنطق ، حيث يتقارع الدليل بالدليل وتتصـــاول الحجة الحجة ، واستمتعت جماهير المسلمين بحريتها فى اختيـــار ما يوافق عقلها ويريح وجدانها .

ولقد اخترنا فى كتابنا هذا نماذج من قضـــــايا الرأى من هذا الطراز الفكرى المحض الأخير ، فنحن ممن يكرهون بطبيعتهم العنف ويؤمنون بالعقل والفكر الانسانى ، وبحق الانسان فى الحــــرية والاختيار ، ونحن ممن يؤمنون أن ذلك هو الأقرب الى جوهر الاسلام

وتعاليمه التى تقوم على حرية الفكر ، وسلطان العقل وحب السلام، مما أشرنا الى طرف منه فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، الذى جعلناه كمقدمة لقضايا الرأى فى الاسلام .

وسيرى كل مطالع لهذا الكتاب من أبناء الجيل الجديد ، ممن يمثلون افكارا ونزعات ، قد يتصورونها جديدة على الفكر الاسلامى لما تنطوى عليه من رغبة فى التجديد ، أو ما يشوبها من روح الشك والتمرد ، سيرون ذلك كله جد قديم ، قدم الفكر الانسانى ، وانه اذا كانت الاختراعات ومظاهر التطور المادية تتغير من عصر الى آخر ومن جيل الى جيل ، فانه يكاد يكون من الثابت حتى الآن ، أن لا جديد فى دنيا الفكر ، وان العقل البشرى مذ كان العقل البشرى فيما يبدو ، قد تعرض وفكر فى كل القضايا والمشكلات التى ستظل تعرض للعقل البشرى فى كل زمان ومكان .

ويمكننا دائما ، أن نرد تفكير بنى الانسان الى مذهبين متعارضين تتفرع عنهما كل الخلافات الأخرى .

أما المذهب الأول فهو المذهب المثالى الذى يقول ان الفـــكرة سبقت المادة ، وأن هـــذا الكون قبل أن يكون مادة ، كان فكرة ، والمذهب المناقض والذى يقول ان المادة قد سبقت الفكرة ، فكانت المادة ثم انبثقت منها الفكرة .

وأصحاب الأديان ينتمون الى المذهب المثالى ، ومنكرو الأديان أو بالأحرى وجود الله ، ينتمون الى المذهب المادى ، ومع ذلك فقد تسربت النظرة المادية ، حتى بين صفوف المتدينين المؤمنين بالله ، كما تسربت المثالية الى أفكار الفلاسفة والمفكرين الماديين .

كل ذلك سنرى لمحات منه ونحن نستعرض بعض هذه القضايا التى غرق فيها المجتمع الاسلامى ، سنرى أصحاب التفكير المثالى، والتفكير المادى أوالواقعى، سنرى من يتمسكون بالنصوص ،وحرفية

النصوص ويرونها الواقع الوحيد الذى يبنون عليه معتقداتهم .. وسنرى الذين يحاولون الوقوف على العلة من هذه النصوص .. ويفرعون على معرفة هذه العلة ، نصوصا جديدة وأحكاما جديدة ، حيث ينكر الآخرون عليهم ذلك ، ويتطرف أقوام فى التمسك بظاهر النص ويصلون فى ذلك الى نتائج غريبة لاتمت الى الاسلام ، كما يتطرف من الناحية الثانية أقوام يجردون النصوص من كل معانيها الظاهرة والمألوفة بدعوى أن لها باطنا خلاف هذا الظاهر ، فينحرفون بدورهم عن جادة الاسلام .

سنرى أقواما يجعلون العقل هو الفيصل فى كل مايتصل بالدين من عقيدة وشريعة ، ونرى أقواما يسقطون العقل ، ويرفضون أن يكون له أى دور فى دائرة الدين ، ونرى كما هو الشأن دائما ، قوما وسطا يحددون للعقل مجالات ليعمل فيها ، وأخرى لا يصلح للعمل فيهـا .

كل ذلك وأكثر منه تعقيدا ، واتساعا يصادفنا ونحن نتـــابع قضايا الرأى فى الاسلام ، والذى سنحاول أن نضع يدك وفكرك على طرف منـه .

وعندنا أن ليس هناك ماينضج الفكر ، الا أن يستند الى أصوله التى منها نبت ، وفيها ترعرع ونشأ . فما الفكر الا ثمرة يانعة من ثمار الحياة الانسانية ، ونحن نعلم أن أى ثمرة لايمكن أن توجد فضلا عن أن تنضج الا اذا كان لها أصول وجذور تضرب فى الأرض .. لتمدها بمقومات وجودها .

وتراث كل شعب من الشعوب ، وفكر أى جماعة من الجماعات بل أى انسان فرد ، هو الثمرة والحصيلة لهذا التراث ، ويخطىء من يتصور أنه قادر على أن يبنى على غير أساس ، أو أن ينمو غير مستند الى جذور تمتد عبر التاريخ والماضى الطويل ، ليس فقط

لعائلته ، أو مدينته أو قبيلته أو أمته ، بل للجنس الانســـانى بأكمله .

ومن هنا كان اهتمام المسلمين القدامى بمعرفة فلسفة الاغريق، والأديان السابقة على الاسلام كاهتمام الأوربيين والغربيين اليــوم بمعرفة كل ما يتصل بالاسلام ومذاهب الفكر فى الاسلام ، اذيجدون فى ذلك أصول تفكيرهم الحديث ومنابت علومهم . بهذا الهدف فى التعريف بتراثنا الاسلامى ، كما يتمثل فى قضايا الرأى ، أهدى هذا الكتاب لناشئة الجيل الجــديد من أبناء العالم الاسلامى .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

أحمد حسين

٣٦ الروضـــة ــ القــاهرة

الفصل الأول

الإسلام دين العقل والفكر وحرية الرأي

لعل أروع ما فى الأديان ، وما يشدنى أنا اليها شخصيا ، هو أنها تعظم من شأن الانسان ، ولا تتركه فى هذا الوجود نهبا للتشتت والضياع وفقدان الأمل .

فالذين لايؤمنون بأن للكون الها عادلا رحيما حكيما خلق الوجود والانسان لحكمة وغاية ، ان خفيت على عقولنا لأنها قاصرة ، فهى كائنة من غير شك ، هؤلاء الذين لايؤمنون بذلك قد يستطيعون مواجهة الحياة ، ما بقوا أقوياء أصحاء ، يحصلون على حاجاتهم فى يسر ورخاء ، ولكنهم لايلبثون أن يهووا فى مهاوى اليأس والشقاء ، اذا حاق بهم مكروه ، وحلت بهم كارثة ، وعرض لهم من الأمر ما لا قبل لهم على دفعه ، وعاشوا فى الظلام يتجرعون الغصص والآلام فما دام الانسان فى تصورهم بعض ذرات هذه المادة الهائمة فى الوجود لغير هدف وبدون علة ، وانه كبقية الكائنات ، قد وجد بمحض الصدفة ، فأى قوة يمكن أن يتوجهوا اليها بالدعاء ، وأى مصدر يمكن أن يتوقعوا منه الفرج ؟

وليس ذلك شأن الأديان .. فهى كلها تقول للانسان ، ان القوة المسيطرة على هذا الكون والذى خلقته ، قد أوجدته لغاية وحكمة لايمكن أن تكون الا خيرا ، وانها تقف بجانب الانسان ترقبه ، فان فاته الخير فى هذه الدنيا ، وافاه فى دنيا أخرى . وان الخير والشر على السواء لابد أن ينال جزاءهما فى حياة ثانية حيث من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

الاسلام والانسان :

ويصل الاسلام الى الذروة فى اظهار هذه الرابطة بين القوة الخالقة المدبرة لهذا الكون وبين الانسان ، فليس الانسان فى حقيقته

الا مظهر هذه القوة الالهية فى هذا الوجود ، ودليل ارادتها ومشيئتها على هذه الأرض . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

« ٣٠ ـ ٣٤ البقرة »

ومن هذا السرد لقصة خلق الانسان كما نص عليها القرآن تتضح الحقائق التالية .

١ ـ ان الله قد اختار أن يخلق الانسان ليكون خليفة له على الأرض ، وقد سواه وخلقه ونفخ فيه من روحه ، ثم طلب من الملائكة أن تسجد له .

٢ ـ ان الملائكة وهم على ماهم عليه من الدرجةالرفيعة ، اذ أنهم كائنات نورانية ، قد أمروا أن يسجدوا للانسان المخلوق من التراب ، وعندما أبى ابليس أن يسجد واسكتبر واعتبر نفسه وقد خلق من‌نار لايمكن أن يسجد لمن خلق من‌تراب ، كان جزاؤه الحرمان من رحمة الله والطرد من صفوف الملائكة .

٣ ـ انه لم يغب عن‌علم الملائكة أن هذا المخلوق الانسانى الجديد سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ويعصى الله ، وتساءلوا

كيف يجوز ذلك وهم يعبدون الله ويقدسونه ولا يعصون ماأمرهم ويسبحونه آناء الليل وأطراف النهار .

فرد عليهم الله سبحانه وتعالى ، فى أن حكمته اقتضت ذلك وأنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة .

٤ ـ وقد زود الله هذا الكائن الجديد وهو الانسان بنعمة العلم ، فتفوق بهذا العلم على الملائكة الذين رسبوا فى الامتحان حيث نجح الانسان .

العلم هو العقل :

والعلم الذى امتاز به الانسان على الملائكة ، هو ما يهدى اليه العقل ، فمن المحقق أن للملائكة علما ، ولكنه علم مفطور فيهم كعلم النواميس ، أما علم الانسان فهو العلم الذى يقوم على العقل والفكر والتمييز والاختيار وهذا التمييز والقدرة على الاختيار أو ما نسميه الحرية فى التقدير والتصرف هو الأمر الذى اختص به الانسان من بين سائر الكائنات .

فالانسان وحده من بين ما يضم هذا الكون من كائنات هـو الحر المختار فى أن يفعل هذا الشىء أو لا يفعله ، يأكل أو لا يأكل ، وهو الذى يختار ما يأكله والوقت الذى يأكله فيه ، والطريقة التى يأكله بها ، أو أن يمتنع عن الأكل بالكلية حتى ليتلف نفسه بالموت تحقيقا لارادته ومشيئته ، التى تعلو عنده على غريزة البقاء التى تسير أى كائن حى آخر .

فالحرية اذن ، حرية الحركة ، حرية التصرف ، حرية الفـكر هى الأصل الذى استحق به الانسان أن يكون انسانا ، يعلو فوق بقية الكائنات ، ويسخر له كل ما فى الكون من شمس وقمر وأرض

وسماء ونجوم ورياح وأمطار وبحار وأسماك وطيور وحيوان ، وأن يكون سيد ذلك كله ، المتصرف فيه والمستعلى عليه .

القرآن وحرية الانسان :

وقد حرص القرآن الكريم على اثبات هذه الحرية للانسان لانها علة وجوده ، فزوده بالقدرة على الاقرار بالعبودية لله أو جحود ذلك، طبقا لما يمليه عليه عقله ، وتوصى به ارادته ، وما عليكم الا أن تقرأوا هذه الآيات :

« وقل الحق من ربكم فمن شـــاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ الكهف)

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » (١٩ المزمل)

« نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٣٦ ، ٣٧ المدثر)

« ان هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم » (٢٧ ، ٢٨ التكوير)

لا اكراه فى الدين :

ويخاطب الله رسوله الكريم محذرا اياه من أن يتصور امكان اكراه الناس على اعتناق الدين :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ (٩٩ يونس)

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٢٥٦ البقرة)

مهمة الرسـول :

« فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر »
(٢١ ، ٢٢ الغاشية)

وتكون مهمة رسـول الله صلوات الله عليه هى مجرد التبليغ والتذكير والانذار .

« وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (٥٥ الذرايات)

معجزة الاسلام معجزة عقلية بحتة :

واذا كان الرسل الذين سبقوا سيدنا محمدا ، قد جعلوا سبيلهم لاقناع أقوامهم برسالتهم هو قيامهم بخارق الأعمال، كتحويل العصا الى ثعبان أو شـق البحر ، أو احياء الموتى وابصار العمى ، فان سبيل محمد صلى الله عليه وسلم ، كان مخاطبة العقل ، ليستجيب لقوانينه الذاتية ، قوانين البديهيات ، والمألوف وما جرت عليه العادة . ولقد طالب مشركو قريش سـيدنا محمدا بأن يقوم لهم بخوارق الأعمال ليثبت لهم أنه رسول من رب العالمين ، فرد عليهم بأنه ليس الا بشرا رسـولا ، جاء يهدى للتى هى أقوم ويخـاطب العقل فيما خلق العقل من أجله :

« ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجـر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خـلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أوتأتى بالله والملائكة قبيلا ، أويكون لك بيت من زخرف أوترقى فىالسماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهـدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » .

(٨٩ — ٩٤ الأسراء)

فنحن نرى أن القرآن لم يجعل سبيل سيدنا محمد أن يأتى بالخوارق التى تصدع العقول، وترهب الأفكار وتحملها على الاذعان وانما جعل سبيله التذكير والتوجيه والدعوة والارشاد ، وتوجيه العقل للتأمل والتدبر والتفكر للاهتداء الى وجود الله ووحدانيته ، فيكون فى هذا الاهتداء الى الله عن حرية واختيار ، هو آية ما يميز الانسان عن سائر الكائنات .

التدرج فى معارج الفكر :

وان الانسان ليروعه سبيل القرآن لارشاد العقل الى الايمان بالله ، فهو يتدرج معه فى معارج الفكر التى هى السبيل التى لا سبيل غيرها للحصول على أى علم يقينى .

فهو يطلب من الانسان أن يستخدم حواسه من سمع وبصر لرصد الظواهر الكونية ، وتدبر نواميسها واستخلاص ما ينطوى عليه ذلك من غيره .

ولنقرأ سويا :

« والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى » (١ ، ٢ الليل)

« والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها (١ ، ٢ الشمس)

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » (١٧ ــ ٢٠ الغاشية) .

وعلى هذه الوتيرة يوجه القرآن العقل البشرى الى سائر المخلوقات وما تنطوى عليه من سر رهيب ، لايقل فى النملة الصغيرة عن الشمس الكبيرة ان لم يزد .

فالنجوم والأفلاك ، كالذباب كالعنكبوت ، كالتين والزيتون ، كالقلم وما يسطرون ،كأوراق الشجر ، كلها ... كلها يقف العقل أمامها مذهولا حائرا ، لا يملك نفسه ألا أن يقر لخالقها بالابداع وعظمة الخلق .

الظواهر الكونية المركبة :

ومن هذه البسائط والأساسيات ، ينتقل القرآن بالعقل الانسانى ، الى تأمل ظواهر فلكية وطبيعية وحيوية أكثر تركيبا وتعقيدا .

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

(٣٧ ـ ٤٠ يس)

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير » . (٤٣ ـ ٤٥ النور)

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٢ ـ ١٤ المؤمنون) .

ولعلك واجد في هذه الآيات وأمثالها مما يمتلىء به القرآن ، بذور كل العلوم الانسانية ، مما مكن كل علماء المسلمين القدامى سواء كانوا أطباء أو مهندسين أو جغرافيين أو رحالين وجوابي آفاق أو منشئين ومخترعين ، أن يبدأوا دائما كتبهم أو مباحثهم ومشروعاتهم بآية من آيات القرآن .

القضايا المنطقية والبراهين :

ويصل القرآن الكريم في مخاطبته للعقل البشرى وتحريكه الى أعلى درجات الاستقراء والاستنتاج على أساس من البديهيات التى يلتزمها العقل ولا يستطيع العمل الا معتمدا عليها . كبديهية ان الشيء اما أن يكون موجودا ، أو أن يكون غير موجود ، وأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وذلك كقول القرآن الكريم :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » ؟ (٣٥ الطور)

فالقرآن هنا يسائل الكافرين الذين ينكرون وجود الله الخالق اذا لم يكن هناك خالق للانسان فكيف وجد ؟ هل جاء من العدم ؟ ان هذا مستحيل ، أيكون الانسان هو الذى خلق نفسه ؟ ذلك مستحيل أيضا ، اذا لا مناص من أن يكون للانسان خالق ليس من نوع الانسان ولا من نوع أى من الكائنات والموجودات ، لا يمكن الا أن يكون من خلق كائن ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

برهان ديكارت :

ولقد كان هذا البرهان العقلى القرآنى ، هو الذى سلكه الفيلسوف ديكارت للوصول الى اثبات وجود الله ، حيث بدأ هذا الفيلسوف تفكيره بالشك في كل شيء ، في كل المعاني والأفكار

بل والماديات والمحسوسات فأنكر أن يكون هناك شيء محقق في هذا الوجود .

ثم انتقل خطوة أخرى فقال :

ـ ولكنني اذا جحدت كل شيء ، وانكرت كل شيء وشككت في كل شيء فليس باستطاعتى أن أنكر أننى أشك وليس الشك الا فكرا .. فأنا أفكر ، وبهذا الفكر فأنا أشك وأنكر واجحد .

وما دمت أفكر فأنا موجود ، وأصبحت عبارته المأثورة انا افكر فأنا موجود .

انتقل ديكارت خطوة أخرى فقال :

ـ ما دمت موجودا فلابد لى من خالق أوجدنى ، وبديهى أننى لم أخلق نفسى ، لأننى لو كنت أنا الـــذى خلقت نفسى لوجب أن ازودها بكل الـكمالات التى تنقصها ، فلا مناص من التسليم بأننى قد خلقت بواسطة كائن يعلونى متمتع بكل الكمالات التى حرم منها الانسـان ، اذ لو كان هذا الـكائن ناقصا لوجب أنيطبق عليه ماطبقه على نفسه من التساؤل لمــاذا لم يخلق نفسه كاملا ، فلا مناص من التسليم بأن خالق الانسان كمال مطلق وارادة مطلقة ، لا يشوبها نقص أو ضعف فضلا عن موت ، لا يمكن أن تكون لها بداية أو نهاية مريدة فعالة قادرة مهيمنة وذلـكم هو الله .

هذا البحث العقلى المنطقى الذى اشتهر به ديكارت هو الذى تضمنته هذه الآية الموجزة ، والتى يتمثل فى ايجازها اعجازها :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

وحدانية الله :

وعلى هذا النسق من الاســـتناد الي بديهيات العقـــل يبرهن القرآن على وحدانية الله .

« لو كان فيهما آلهـة الا الله لفسدتا فسبحن الله رب العرش عما يصفون » .
(٢٢ الأنبياء)

فاذا تساءل العقل ، ولما يفسد الوجود اذا تعددت الآلهة ، فان القرآن الكريم يزيد الأمر تفسيرا :

« وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلابعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » .

(٩١ المؤمنون)

ولا يستطيع العقل الا أن يصدع بهذه الحجة ، فلو كان الكون ينطوى على أكثر من قوة ، لتصارعت القوى ، ولاختل النظام ، ولما اطردت النواميس الكونية .

العلم التجريبى :

بل ان القرآن ليشير الى العلم التجريبى وكيف انه مصدر اليقين واطمئنان القلب وذلك فى حديثه عن سيدنا ابراهيم عندما سأل ربه أن يريه بعينيه كيف يحيى الموتى :

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ... » .
(٢٦٠ البقرة)

وقد استجاب الله عز وجل لسيدنا ابراهيم ، فجعله يقوم بتجربة يستدل منها على امكان ابتعاث الموتى وعودتهم للحياة ، ودل ذلك على أن التماس الدليل والبرهان الحسى التجريبى هو أقوى أسس العلم اليقينى .

ولقد كرر القرآن استعمال كلمة الدليل والبرهان ، لاثبات اي قضية .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم . » (١٧٤النساء)
« ومن يدع مع الله اله آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه . . . » (١١٧ المؤمنون)

« . . . أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .
(٦٤ النمل)

محاربة الجمود والتقليد :

ويصل القرآن الى الذروة فى الدعوة الى اعمال العقل والفكر بصفة دائمة ، وعدم الجمود ، والتمسك بالتقاليدالبالية والخرافات والأوهام التى لا تقوم على أساس من الحق بحجة متابعة الآباء والأجداد :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

(١٧٠ البقرة)

« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك من قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون» .
(٢١ ــ ٢٤ الزخرف)

يتفكرون ويعقلون ويفقهون :

والقرآن دعوة ملحة للمؤمنين ولكل من له بصر وسمع وعقل، أن يتدبر ويتدبروا ويعقل ويعقلوا ، ويفقه ويفقهوا ويتفكر ويتفكروا وكل هذه الألفاظ لها مدلول واحد وهو اعمال العقل .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟ (٢٤ محمد)

« قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (١٧ الحديد)

وقد وردت كلمة تعقلون فى مثل هذا السياق فى القرآن ٤٨ مرة .

« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (٩٨ ـ الأنعام)

وقد وردت كلمة يفقهون بمثل هذا السياق فى القرآن ١٧ مرة

« ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١٣ ـ الجاثية)

وقد وردت كلمة يتفكرون بهذا السياق فى القرآن ١١ مرة .

وهكذا يطالعنا الحديث عن العقل ووجوب اعمال العقل ، فى كل سطر من سطور القرآن ان لم يكن بالنص ، فبالروح والايماء .

وكذلك الشأن فى سيرة الرسول :

واذا كان هذا هو منهاج القرآن .. دعوة ملحة لاعمال العقل ، والتماس الدليل الحسى لو أمكن ، فالدليل العقلى عند استحالة الدليل المادى، فان حياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت تطبيقا حيا لمنهاج القرآن ونزولا عند أحكامه .

ولقـد صدقت السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن اخلاق سيدنا محمد فأجابت بقولها « كان خلقه القرآن » .

فالحق ان هذا هو أدق وصف لحياة سـيدنا محمد ، فقد اهتدى فى كل حركاته وسكناته بهدى القرآن الكريم فاذا كان القرآن يدعو الى التعقل والتدبر ، والأخذ بالأسباب ، واصطناع الحكمة والسياسة والكياسـة ، فان حياة سيدنا محمد سـواء

ابان وجوده فى مكة فى أول الدعوة ، أو بعد انتقاله الى المدينة ، هى صورة مجسدة من الأخذ بأحكام العقل والنزول عند مقتضياته فاذا كان من تقاليد العرب ألا يتعرضوا لمن يكون فى حماية كبير من كبرائهم ، فلا بأس أن يحتمى سيدنا محمد بجاه عمه أبى طالب وان بقى على شركه . واذا اشتد الأذى بالمؤمنين الضعفاء الذين لايجدون من يحميهم ، فليهاجروا الى الحبشة ليجدوا الأمن فى ظل ملكها المسيحى .

وعند ما يموت عمه أبو طالب ، فليس هناك ما يمنع من أن يلتمس هذه الحماية التى كان يسبغها عليه عمه عند آخرين ولو كانوا لا يزالون على دين الشرك .

وعندما سرت الدعوة الى المدينة ، فليهاجر اليها المسلمون نجاة بدينهم ، حتى اذا انتشر الدين الاسلامى فى هذه البيئة الجديدة ، فليهاجر اليها سيدنا محمد نفسه وليتخذ من المدينة قلعة لحماية الاسلام .

وعندما فرضت عليه الظروف أن يمتشق الحسام دفاعا عن الاسلام ، نجد أمامنا قائدا عسكريا يلتمس للنصر أسبابه من الفنون العسكرية ، ويأخذ فيه بنصح المختصين والفنيين . فاذا اختار مكانا للمعركة وأشار عليه الفنيون بمكان أصلح أخذ برأيهم فكان الانتصار فى موقعة بدر .

وفى موقعة أحد كان له رأى ، ولكن الأغلبية كان لها رأى آخر ، فنزل عن رأيه الى الأغلبية ، فكانت هزيمة أحد ، فلم يجعله ذلك يجزع ويكفر بمبدأ الشورى ، بل لقد نزل القرآن يحضه على العفو عن خطأ أصحابه ويأمره بالتمسك بمبدأ الشورى الذى هو أصلح أساس لقيام الدولة الناجحة .

« .. فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . » (١٥٩ آل عمران)

وفى غزوة الخندق ، عندما أطبقت جيوش العرب على المدينة لسحق المسلمين أشار عليه سلمان الفارسى بحفر الخندق ، وهو اجراء لم يكن للعرب عهد به من قبل ، ولكن سـيدنا محمد أدرك بعبقريته الفذة ما فى هذا الاقتراح من فائدة للدفاع عن المدينة . وعند حصاره الطائف استخدم أحدث اسلحة الحصار وهى المجانيق واسـتعملها .

وقد استجاب الرسول صلوات الله عليه لاقتراح امرأة من المسلمين اقترحت عليه أن يصـنع له ابنها منبرا يقف عليه عندما يخطب فى المسجد ، فكان انشاء المنبر لأول مرة فى الاسلام .

ولقد استشار النبى صلوات الله عليه فى أخص شئونه التى قد لا يستشير فيها الأنسان العادى ، وذلك فى ابان حادث الافك الذى أرجف فيه المنافقون حول تصرف للسيدة عائشـة ، وكان سيدنا على رضى الله عنه ممن أشار على سـيدنا محمد فى هذه المناسبة بطلاق السيدة عائشة قائلا النسـاء غيرها كثيرات ، وهو الموقف الذى لم تغفره له السيدة عائشة ما ظلت على ظهر الحياة . وظل ذلك حال سـيدنا محمد حتى نزل عليه الوحى بتبرئة السيدة عائشة ، وانزل العقاب بمن تكلم فى حقها من المنافقين .

سيدنا عمر واجتهاداته :

ولعله لم يكن بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من اعتاد أن يشير عليه بكثرة كما هو الشأن بالنسبة لسـيدنا عمر ابن الخطاب ، وكثيرا ما كانت آراء سـيدنا عمر تخالف رأى النبى

صلوات الله عليه ويتصرف طبقا لرأيه فينزل القرآن الكريم برأى سيدنا عمر وعلى خلاف رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

حدث ذلك بالنسبة لأسارى بدر ، حيث اختار سيدنا محمد أن يبقى عليهم أحياء وأن يردهم الى أهلهم اذا دفعوا فدية ، وكان من رأى سيدنا عمر أن تضرب أعناقهم ، ونزل القرآن الكريم موافقا لرأى سيدنا عمر . وأشار سيدنا عمر على سيدنا محمد أن يحجب نساءه فتوقف سيدنا محمد عن العمل بمشورته فنزل القرآن موافقا رأى سيدنا عمر ، وأشار سيدنا عمر باتخاذ مقام ابراهيم مصلى ، فنزل القرآن يؤيد ذلك .

ولما توفى عبد الله بن أبى زعيم المنافقين ، قام رسول الله ليصلى عليه ، فقام سيدنا عمر وأخذ بثوب رسول الله قائلا : يارسول الله انه منافق ، ولكن سيدنا محمدا صلوات الله عليه صلى على عبد الله بن أبى ، فنزل القرآن يقول :

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ... ».
(٨٤ التوبة)

وهكذا كانت حياة سيدنا محمد ، حياة تقوم على الأخذ بأسباب الحياة ، ومقتضيات المنطق ودواعى الأمن والنظام والأخذ بأسباب النجاح والترقى بآخر معطيات العلم واحكام العقل ، وتقدير الرأى.

الحضارة الاسلامية تفجر وجدانى عقلى علمى :

فلا عجب اذا كان شأن القرآن ودعوته للعقل والعلم ، وهذه سيرة الرسول ، وما تقدمه من نموذج رائع للمسلمين فى ضرورة اعمال العقل واختيار الأصلح فى كل شأن من الشئون ، أن يتفجر المجتمع الاسلامى بأسباب القوة والانبعاث والتحضر فشهدت الانسانية معجزة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية ، عندماتحول

عرب الجزيرة الذين عاشوا طوال حياتهم قبائل متفرقة متعادية متحاربة ، لا تعرف دولة فضلا عن حضارة الى مشاعل نور للانسانية كلها فسارت جيوشهم تحرر الفعل الانسانى من العبودية والأوهام والقيود والاغلال ، ابتداء من سور الصين شرقا والى ما وراء سور الصين .. وحتى المحيط الأطلسى غربا ، وفى هذه الرقعة الضخمة من الأرض التى ألفت لأول مرة فى التاريخ مجتمعا انسانيا واحدا ، يظلله علم واحد ودين واحد ، تلاقت الحضارات ، وانصهرت المدنيات ، وامتزجت العلوم والمعارف الهندية بالبوذية بالاغريقية بالفارسية بالمصرية بالافريقية ، فى بوتقة القرآن ، وخرج من ذلك كله حضارة الاسلام يذهل الانسان من مدى ما وصلت اليه من الروعة ، وسنرى فى الصفحات التالية بعضا مما وصلت اليه من ترف عقلى .

وعلماء التاريخ ، ومؤرخو العلوم فى أوربا وأمريكا يكادون يجمعون اليوم على أن نهضة أوربا الحديثة انما هى نتيجة التأثر بالحضارة الاسلامية ، والتى أوصلت اليها المعارف الاغريقية ، بعد أن دبت فيها الروح الاسلامية ، كما أوصلت اليها أساليب العرب ومناهجها التجريبية فى علوم الطب والكيمياء والطبيعات ، من ثلاث طرق .

الأول — احتكاك الصليبيين بالمسلمين المباشر فى الشرق الاسلامى ، فأخذوا عنهم وعادوا بما أخذوه الى بلادهم .

الثانى — عن طريق الأندلس ، حيث تسربت العلوم والمعارف ومظاهر الحضارة والمدنية الى فرنسا .

الثالث — عن طريق صقلية ، حيث امتدت منها العلوم والمعارف والحضارة الاسلامية الى ايطاليا والمانيا .

ولم يكن بمحض الصدفة أن جاء الاصلاح الدينى الذى دعا اليه مارتن لوثر فى المانيا ، كما لم يكن بمحض الصدفة أن قام عهـد النهضة الأوربى (الرينسانس) فى ايطاليا ثم فى فرنسا ثم فى اسبانيا والبرتغال ، وهى الدول التى كانت أكثر احتكاكا بالعرب والمسلمين .

واذا علمنـــا ذلك ، وعرفنا أن ذلك هو الأثر المباشر لمـــا فى التعاليم الاسلامية ، والآيات القرآنية ، والسيرة النبوية ، من دعوة للفكر والنهوض والتقدم والابتكار والابداع ، كان علينا أن نرى كيف تفاعل الفكر الاسلامى من خلال معارك الرأى ، مع نفسه حينا، ومع الفكر الاغريقى حينا آخر ، حتى أحدث كل هذا الذى أحدثه ، من تمدن وعلم وحضارة .

الفصل الثانى

قضية الرأى حول من يخلف رسول الله

فى مرض رسول الله :

لم يشأ رسول الله وقد أعلمه الله بدنو أجله ، أن يفرض على المسلمين خليفته من بعده ، على سبيل الأمر والتكليف ، ولا بد أن ذلك كان بالهام من الله عز وجل ، الذى أراد أن يضع الأســاس لاختيار ولى الأمر عن طريق التشاور والتراضى بين أولى الحل والعقد وزعماء الجماعة وقادتها .

ومع شديد حرص رسول الله على ألا يعين الخليفة من بعده عن طريق الأمر ، فلم يفته أن يوجه المسلمين الى اختيار خير الناس من بعده ، على سبيل الايماء والاشارة .

فيروى لنا الطبرى أن رسول الله فى مرضه الأخــير طلب من آل بيته أن يصبوا عليه سبع قرب من الماء ، فوجد فى نفسه بعدها راحة فخرج فصلى بالناس وخطبهم واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ثم أوصى بالأنصار خيرا ثم قال : « ان عبدا من عباد الله قد خير بين ما عند الله وبين الدنيا فاختار ما عند الله » ، وكان بذلك ينعى نفسه للمسلمين فلم يفهم ذلك الا أبو بكر فبكى ، وقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « على رسلك يا أبا بكر . سدوا هذه الأبواب الشوارع (أى المفتوحة) فى المســجد الا باب أبى بــكر . فانى لا أعلم امرءا أفضل يدا فى الصحابة من أبى بكر ــ وأضاف فى بعض الروايات ــ ولو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخــذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة واخاء ايمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وهكذا طلب رسول الله أن تسد أبواب بيوت الصحابة التى تفتح على المسجد الا باب أبى بكر ، ثم أشاد به وأعلن فضله على بقية الصحابة .

وعندما اشتد المرض برسول الله وأصبح غير قادر على أن يؤم الناس للصلاة قال على ما يروى لنا الزهرى : « مروا أبا بكر فليصل

بالناس . فقالت عائشة يا نبى الله ان أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن ، قال مروه فليصل بالناس »

ولأمر ما لم ينفذ أمر الرسول ، فدعا بلال سيدنا عمر بن الخطاب ليصلى بالناس ، فلما كبر سمع رسول الله صوته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين أبو بكر ، يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون » .

وجاء أبو بكر فصلى بالناس ، ففرح رسول الله وخرج عاصبا رأسه ، فعندما رآه الناس كادوا أن يفتنوا ويخرجوا من الصلاة ، وعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن ينكص عن مكانه كامام ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه فى ظهره وطلب منه أن يواصل صلاته بالناس ، وجلس الى يمين سيدنا أبى بكر وصلى قاعدا .

وهكذا دل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المسلمين بطريقة عملية أن أبا بكر الصديق هو أفضـــل صحابته ، وانه هو الذى اختاره ليحل محله فى الصلاة ، بل وصلى خلفه تأكيدا لامامته .

ومع ذلك فمن المحقق أن سيدنا محمد صـــلوات الله عليه لم يعين أبا بكر بطريق حاسم لخلافته ، فلم تكن فكرة موت رســول الله تطوف لأحد من الصحابة فى خيال ، وانما كان الجميع يتصورونها وعكة عارضـــة .

وفاة رســـول الله

وحم القضاء ، ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى فى اليوم التالى لهذه الواقعة ، ولم يكد النبأ يذاع حتى فقد المسلمون صوابهم ، ومن عجب أن عمر بن الخطاب وهو من هو في رجاحة العقل ، ورباطة

الجأش وعمق الايمان بالله ، كان ممن فقدوا صوابهم فى هذا اليوم وندد بكل من يقول ان سيدنا محمدا قد مات ، بل وأوعد وأنذر بضرب رقبته ، يقول لنا الطبرى :

« دخل عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة ليعودا رسول الله ، ولم يكادا يدخلان حتى كان رسول الله قد فارق الحياة فنظر اليه عمر وقال « واغشياه ، ما أشد ما غشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام هو والمغيرة بن شعبة ، فلما دنـــوا من الباب قال المغيرة : لقد مات رسول الله يا عمر ، فانتفض عمر من فرط الغضب وقال للمغيرة : كذبت يا مغيرة ، وأنت رجل تحوسك فتنة ، ان رسول الله لا يموت حتى يفنى الله المجاهدين . وخرج الى الناس يتوعد وينذر من يدعى موت رسول الله ، وكان مما قاله : ان رسول صلى الله عليه وسلم قد ذهب ليقابل ربه كما فعل سيدنا موسى وهو لابد عائد فقاطع رقاب المنافقين والكافرين والمرجفين .

ووصل الخبر الى أبى بكر الصديق ، فوصل الى المسجد ودخله دون أن يكلم من فيه وقصد الى بيت ابنته السيدة عائشة حيث كان جثمان رسول الله ، فلما دخل الى بيتها لقى رسول الله مسجى على الفراش وهو مغطى الوجه فكشف عن وجهه فأدرك على الفور أنه لحق بالرفيق الأعلى ، فأكب عليه وقبله ثم بكى وقال ، بأبى أنت وأمى يا رســـول الله ، طبت حيا وميتا ، ووالله لا يجمع الله عليك موتتين أبدا ، فأما الموتة التى كتبت عليك فقد ذقتها » .

ويقف التاريخ حائرا مبهوتا ، فهذا الرجل الذى كانت ابنته تصفه بالرقة والضـــعف ، وأنه بكاء ، يتحـول الى عملاق الأمة الاسلامية فى ذلك اليوم ، وما ذلك الا لأن الله عز وجل أودعه سره وارادتـــه .

فقد خرج أبو بكر ، فوجد عمر يواصل وعيده وانذاراته ويكذب القول بأن رسول الله قد مات ، فقال له اجلس يا عمر ،

ولكن عمر أبى أن يجلس ، وكرر عليه أبو بكر أمره بالجلوس ، فلما لم يجلس ، أقبل أبو بكر على الناس يخطبهم وبدأ فتشـهد وأثنى على الله ، فأقبل الناس عليه منصرفين عن سيدنا عمر ، ومضى أبو بكر يقول :

ـ أيها الناس من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت .

وتلا من القرآن : « وما محمد الا رسـول قد خلت من قبله الرسـل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .
(١٤٤ آل عمران)

يقول عمر فو الله ما هو أن سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية حتى عرفت أنه الحق فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وهويت الى الأرض ، وعرفت حين سمعته يتلوها ان رسول الله قد مات (١) .

الأنصار يجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة :

وبينما كان المهاجرون السابقون وآل بيت رسول الله ، قـد أذهلهم المصاب فانشغلوا به ، كان الأنصار من أهل المدينة أكثر واقعية ، فراحوا يواجهون الموقف الجديد الذى نشأ عن موت رسول الله ، ايمانا منهم بضرورة قيام خليفة لرسول الله ، يواصل حمل رسالته ، ويثبت العقيدة ، ويدافع عن حوزة الاسلام ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة واتفقوا على تولية سـعد بن عبادة زعيم الخزرج ليكون خليفة لرسول الله ، ولما كان الرجل مريضا ، فقد أحضروه الى الاجتماع محمولا فوق محفة ، ولما كان لا يقدر بسبب مرضه أن

---

(١) الطبري وابن هشام .

يسمع صوته للمجتمعين ، طلب من أحد أقاربه أن يتلقى عنه مايريد قوله ويبلغه الى الناس بالصوت الجهير ، فكان سعد بن عبادة يقول قوله ويكرره الرجل بعد أن يعيه ويحفظه فيسمع الناس .

وكان مما قاله فى هذا اليوم على ما رواه الطبرى بتفصيل ووردت الاشارة بما لا يخرج عن معناه فى مختلف كتب السير والأحاديث ، قال :

« يا معشر الأنصار ، ان لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة من العرب ، ان محمدا عليه السلام ، لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه الا رجال قليل ، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ، ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به ، حتى اذا أراد الله بكم الفضيلة ، ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الايمان به وبروسوله ، والمنع له ولأصحابه والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ،حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا ، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ، فاستبدوا بهذا الأمر (أى الخلافة) دون الناس . فرد عليه الأنصارى ، أن قد وفق الى الرأى ، وأصاب فى القول ، واتفقوا على توليته الخلافة ، ففى ذلك ما يقنع الأنصار ، ويرضى المسلمين .

ولكن بعض الحاضرين تساءل :

ـ وماذا اذا أبى المهاجرون من قريش ، وقالوا انهم المهاجرون، وصحابة رسول الله الأولون ، وعشيرته وأولياؤه ، فكيف ينازعون فى هذا الأمر .

فرد البعض قائلا اذن يكون ردنا :

ــ منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بغير هذا أبدا .

ولم يكد سعد بن عبادة يسمع هذا الرأى ، حتى أحس بخيبة أمل وقال :

ــ هذا أول الوهن ..

وكان حدس سعد بن عبادة صادقا ــ ففى هذه الأثناء كان خبر الاجتماع قد وصل الى عمر بن الخطاب ، فهاله الأمر واستصرخ أبا بكر أن يلحقا بالأنصار ، وفى الطريق لقيهما أبو عبيدة بن الجراح فأسرع ثلاثتهم الى سقيفة بنى ساعدة .

يقول سيدنا عمر : فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة ، فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل ، فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة . فقلت : ما له ؟ قالوا : وجع (أى مريض) فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبة الاسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط نبينا ، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تغتصبوا منا هذا الأمر .

وهم عمر بن الخطاب بأن يرد على المتكلم ، ولكن أبا بكر للمرة الثانية طلب من عمر أن يدعه يتكلم أولا ، ثم يتكلم بعده بمايشاء .

وبدأ أبو بكر خطبته ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ ان الله قد بعث محمدا رسولا الى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه ، وكانوا يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها (أى الأصنام) تشفع لهم عند الله وتنفعهم ، مع أنها

حجر منحوت وخشب منحور ثم قرأ : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله .. »
(١٨ يونس)

وعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والايمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم اياهم ، وكل الناس مخالف لهم ، زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، واجماع قومهم عليهم • فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك الا ظالم •

وانتم معشر الأنصار ، من لاينكر فضلهم فى الدين ، ولاسابقتهم العظيمة فى الاسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا (من هو) بمنزلتكم فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولاتقضى دونكم الأمور •

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح معترضا وقال :

ـ يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فان الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، ذوو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناس الى ماتصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقص عليكم أمركم ، أبى هؤلاء الا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير •

فقال عمر بن الخطاب :

ـ هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ، ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها

من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط فى هلكة .

ولكن الحباب بن المنذر قام ثانية ليقول :

ــ يا معشر الأنصار ، املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فان أبوا عليكم ما سألتموه ، فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ، ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، أما والله لئن شئتم لنعيدها جذعة .

فقال عمـــر :

ــ اذن يقتلك الله .

ورد الحبـاب :

ــ بل اياك نقتل .

وأحس أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة ، بخطورة الموقف ، فتدخل مناشدا الأنصـــار ، ومذكرا اياهم . بأمانة الاســـلام فى أعناقهم :

ــ يا معشر الأنصار ، لقد كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير .

وكأن هذه الصيحة كانت نداء من الله ، فقد قام على اثرها بشير بن سعد أبو النعمان الأنصارى وقال :

ــ يا معشر الأنصار ، انا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، فما أردنا بذلك الا رضا ربنا

وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضـــا ، فان الله ولى المنة علينا بذلك • ألا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومهأحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »

وكان لهذا القول فعل السحر فى نفوس الأنصار ، وأسرع أبو بكر يحسم الموقف ، ويبرهن على أنه لم يكن يطلب هذا الأمر لنفسه ، فأمسك بيدى عمر وأبى عبيدة ، وقال للأنصار :

ـ أيهما شئتم من الرجلين فبايعوا •

فقال الرجلان :

ـ لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فانك افضل المهاجرين وثانى اثنين اذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصـــلاة ، والصلاة أفضل دين المســـلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك • أبسط يدك نبايعك •

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما اليه بشير بن سعد فبايعه ، وانهمر سيل الأنصار يبايع أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة من شـــدة الزحام •

بيعـــة العـــامة :

واذا كانت هذه البيعة لأبى بكر قد اشتهرت فى التاريخ باسم بيعة السقيفة ، وقد تمت يوم الاثنين من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، فان الأمر لم يتم لأبى بكر الا فى اليـــوم التالى لتبايعه عامة المسلمين ، وكانت القلوب الواجفة قد استقرت ، وحالة الفزع التى انتابت المسلمين لوفاة سيدنا محمد قد ذهبت عنهم

وأدركوا عن يقين واقتناع أن أبا بكر الصديق هو أحق من يخلف رســـول الله ٠

ووقف عمر بن الخطاب خطيبا فى المسجد فقال :

ـ أيها الناس انى كنت قد قلت لكم مقالة بالأمس ما وجدتها فى كتاب الله ، ولم تكن عهدا عهد به الى رسول الله ، ولكنى كنت أرجوا أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا (يريد بذلك أن يكون آخرهم) فان يك محمدا قد مات فان الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله ، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ٠ وان الله قد أجمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ، وثانى اثنين اذهما فى الغار ، فقوموا فبايعوا ٠

فبايع الناس أبا بكر وسميت هذه بيعة العامة تمييزا لها عن بيعة السقيفة ٠

خطاب أبى بكر :

ثم وقف أبو بكر خطيبا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

ـ أما بعد أيها الناس ، فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، وان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوى عندى حتى أزيح علته ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق ان شاء الله ٠ لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم ، الا عمهم الله بالبلاء ٠

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله ٠

انتصار الايمان والعقل :

وهكذا في أول خلاف خطير في الرأى قام بين المسلمين فى أحرج اللحظات خطورة فى حياة الاسلام ، تغلب صـــوت العقل ، ونور الايمان ، فاذا كان الأنصار بحسب رأيهم ، وهم محقون ، هم الذين نصروا رسول الله ، وقد أوشك قومه على قتله ، واذا كانوا هم الذين رفعوا لواء الدين ، ودافعـــوا عنه بالمهج والأرواح ، فان السابقين الأولين من المهاجرين وعلى رأسهم أبوبكر الصديق ، كانوا أول من آمن برسول الله ، وأول من عبدوا الله فى الأرض ، وأول من احتمل صنوف العذاب والمكاره والآلام ، حتى لقـد اضطروا للهجرة من وطنهم ، مخلفين وراءهم أموالهم وبيوتهم ، بل وأسرهم، دفاعا عن دين الله ، فاذا استطال الأنصار على من دخلوا فى دين الاسلام بعد انتصار الرســول بسيوفهم ، فان هؤلاء الســـابقين الأولين يجيئون من حيث الفضل قبل الأنصار ، ولولاهم لما كان الانصـــار ٠

على أن المسألة لم تكن مسألة فضل من هذا الجانب أو ذاك ، وانما مقتضيات المصلحة العامة هى التى كانت تحتم أن تـــكون الخلافة فى أصحاب رسول الله من قريش فما كانت العرب لتدين لغير قريش بالولاء ٠

والذى يعنينا من ذلك الموقف كله بالنسبة لموضوع كتابنا هذا أن أول قضايا الرأى فى السلام بعد وفاة الرسول ، قد أرست الأساس لنظام الحكم فى الاسلام ، فالخليفة لا يكون الا بانتخاب المسلمين ورضاهم وهو ما نسميه فى عصرنا الحديث ، انتخاب رئيس الدولة ٠

وان يلتزم ولى الأمر فى حكمه الناس ، أحكام الشريعة نصـا وروحا ، وهو ما نسميه فى لغة عصرنا بسيادة القانون ، فالطاعة

مفروضة لولى الأمر ما بقى يعمل فى حدود الشريعة أو ما أسماه أبو بكر طاعة الله وطاعة الرسول ، فاذا خرج على الشريعة ، أو ما نسميه بلغة عصرنا ، الدستور والقانون الأساسى للحكم ، فقد أصبح الناس فى حل من طاعته .

وهكذا كان المسلمون الأوائل بعد رسول الله يستلهمون القرآن وسيرة الرسول ، ليضعوا للبشرية دستورا خالدا للحكم ، يقوم على الديمقراطية فى أحسن جوانبها .

الفصل الثالث

اجتهادات عمر بن الخطاب وما أثارته من قضايا الرأي بين الصحابة

ورأينا من قبل كيف رشح أبو بكر عمر بن الخطاب ليكون خليفة للمسلمين بعد وفاة رسول الله ، لولا أن سيدنا عمر أنكر أن يكون سابقا على أبى بكر ، فلا عجب اذا ظل ابو بكر طوال خلافته يرى أن عمر بن الخطاب ، هو خير من يخلفه فى امارة المسلمين ، فلما مرض أبو بكر مرض الموت وكان ذلك فى العام الثالث عشر للهجرة فى شهر جمادى الثانية ، ظل خمسة عشر يوما لا يقدر على الصلاة بالناس ، فأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بهم ، وخشى ابو بكر أن تدركه الوفاة ، دون أن يستخلف عمر بن الخطاب .. فيقع المسلمون فى الفتنة التى أوشكوا أن يقعوا فيها بعد وفاة رسول الله ، فكتب عهدا لعمر بن الخطاب أن يلى الخلافة من بعده ، ولكنه لم يفعل ذلك الا بعد أن شاور كبار الصحابة ، وبعد أن اخذ التفويض بذلك من الناس .

فيحدثنا الطبرى أنه دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال له :

ـ أخبرنى عن عمر .

فأجابه بقوله :

ـ يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة .

فقال أبو بكر :

ـ ذلك لأنه يرانى رقيقا ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مماهو عليه ، لقد راقبته فرأيتنى اذا غضبت على الرجل فى الشيء أرانى الرضا عنه ، واذا لنت له أرانى الشدة عليه .

ثم أوصى عبد الرحمن بن عوف ، الا يذكر شيئا مما قاله له .

ثم دعا عثمان بن عفان فقال له :

ـ يا أبا عبد الله اخبرنى عن عمر .

ــ انت أخبر به .

ــ أعلى ذاك يا أبا عبد الله .

ــ اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله .

ومرة أخرى طلب أبو بكر من عثمان ألا يذيع الأمر .

وكان طلحة بن عبيد الله ممن لا يرون خلافة عمر ، فقال لأبى بكر :

ــ لقد رأيت ما يلقى الناس منه وانت معه ، فكيف به اذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك .

وكان أبو بكر مضطجعا فقال :

ــ أجلسونى .

فلما أجلسوه قال لطلحة :

ــ أبا لله تخوفنى . اذا لقيت ربى فسألنى ، قلت استخلفت على أهلك خير أهلك . حتى اذا استقر عزم أبو بكر ، خرج الى الناس ، وآل بيته يعاونونه فسأل الناس اذا كانوا يرضون بمن يختاره لهم ، فأجابوه بالموافقة فقال لهم :

ــ والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة وانى قد استخلفت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا .

فقال الناس :

ــ سمعنا واطعنا .

وهكذا تمت خلافة عمر بن الخطاب ، بوصية من أبى بكر بعد التشاور مع الناس ، والحق أن عمر بن الخطاب كان رجلها الأوحد .

ولسنا فى صدد التاريخ لعمر بن الخطاب وأمجاده ، وكيف أنه يجب أن يعتبر بحق واضع الأساس للحكم الاسلامى بعد أن خرج من جزيرة العرب ، وانه قد تم على يديه تصفية أعظم امبراطوريتين فى ذلك التاريخ اقتسما العالم فيما بينهما ونعنى بهما امبراطورية الفرس وامبراطورية الرومان ، ورفع لواء الاسلام على ربوع الدولتين فى آسيا وأفريقيا .

وانما الذى يتصل بموضوع كتابنا من تاريخ عمر ، هو شخصية عمر باعتباره المجتهد الأكبر فى الاسلام ، وما أثاره من قضايا الرأى حول العديد من المسائل . وقد فرضت الظروف عليه أن يكون أول من يفعل هذا الشيء أو ذاك فى الاسلام ، وكان على عمر أن يبت ويحسم فى غياب السوابق من قرآن أو سنة أو عمل أبى بكر الصديق .

فهو أول من تسمى أمير المؤمنين ، اذ استثقل أن يكون لقبه خليفة خليفة رسول الله ووجد أن ذلك أمر يطول بتعاقب الخلفاء ، وقال لمن حوله وقد راح يشاورهم :

ـ أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم ، فليكن لقبى أمير المؤمنين .

وهو أول من اضطرته الظروف الى اتخاذ تاريخ .. ووقع الاختيار على اتخاذ الهجرة بداية للتاريخ الاسلامى .

وهو أول من أنشأ منصب القاضى المختص بالقضاء ، وأول من مصر الأمصار ، وطلب من المسلمين أن يقيموا فى مدن ينشئونها على حافة الصحراء ، فكانت الكوفة وكانت البصرة وكانت الفسطاط .

وأول من انشأ السجلات لتدوين أسماء المسلمين المستحقين للأموال من بيت المال .. وقد تمت هذه الأعمال وأمثالها دون أن تثير كبير خلاف أو مناقشة ، فهى كلها من نوع المصالح التى لا غنى عنها لتسيير دفة الأمور .

ولكن مسائل أخرى ، لم تتم بمثل هذا اليسر والسهولة ، نشير الى واحدة منهـا على سبيل الايجـاز ، ونسـجل واحدة منها بتفصيلاتها كما وردت فى المراجع .

الحاق المجوس بأهل الكتاب :

أما المشكلة الأولى فهى مشكلة المجوس من أهل الفرس ، فهم باعتبارهم من عبدة النار ، يعتبرون من المشركين الذين لا يقبل منهم دفع الجزية ، وليس أمامهم سوى الموت أو الاسلام ، وادرك عمر أن ذلك معناه ، أن لن يكون سبيل للتصالح مع أهل فارس وانمـا حرب ضروس ، تفنى فيها الجيوش الاسلامية ، على المدى الطويل ، أو يفنون فيها شعب فارس ، وهو ما لا يتفق وأهداف الاسلام الذى رأيناه لا يكره أحدا على اعتناق الدين ، وتشاور عمر مع صحابة رسول الله ، وقيل له ان المجوس يتعبدون بكتاب ، فرأى عمر بن الخطاب ان هذا يكفى للاشتباه أن يكونوا من أهل الكتاب فألحقهم فى المعاملة بأهل الكتاب ، ورضى منهم بدفع الجزية ، وبذلك حقن دماء المسلمين ودماء المجوس . وتقول بعض المراجع انه لم يكد يرفق لهذا الرأى حتى شهد أمامه بعض الصحابة أن هذا هو ما عامل به رسول الله مجوس هجـر حيث أخـذ منهم الجزية .

ومراجع أخرى تقول انه طبق هذا النص ابتداء ولم يكن فى الأمر مشكلة .

ولكنا سنرى فى الفصل التالى عندما نتحدث عن مدرستى الرأى والحديث فى التشريع ، أن فقهاء الحديث قد حرصوا دائما على أن يجدوا أحاديث وأن يفسروا الآيات لتدعيم اجتهادات سيدنا عمر ، ولكن من المحقق أن هذه الأحاديث والتفسيرات المقول بها ، لم تكن تحت أنظار سيدنا عمر والا لما كان فى الأمر مشكلة كما تثبت كتب التاريخ .

قضية الرأى حول تقسيم الأراضى المفتوحة :

أما الموقف الذى ننقله بنصه من كتب الأصول ، فهو الخلاف فى الرأى الذى دار بين بعض الصحابة وبين سيدنا عمر حول توزيع الأراضى فى البلاد المفتوحة . فقد طالب الصحابة الذين اشتركوا فى فتح بلاد الشام والعراق ومصر أن تقسم أراضى هذه البلاد عليهم باعتبارها غنائم حرب ، وقد نص القرآن على توزيعها على المقاتلة ، وجرى العمل أيام رسول الله على ذلك .

فالآية ٤١ من سورة الأنفال تقول :

« واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » .

وطبقا لهذه الآية ، فقد كانت غنائم الحرب تقسم الى خمسة أخماس ، يأخذ رسول الله الخمس ليوزعه فى مصارفه الشرعية التى عددتها الآية ، والأربعة أخماس الباقية توزع على المقاتلين باعتبارها غنائم حرب .

وقد أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من خيبر ثم قسم هذه الأراضى بنفس الطريقة التى كان يقسم بها الغنائم ،

فيحتفظ بالخمس لما أصبح يعد بيت المال ووزع أربعة أخمـــــاس أراضى خيبر على المقاتلين .

وطبقا لهذه القاعدة وما جرى عليه العمل ، قاس بعض الصحابة أراضى العراق والشام ومصر ، على أرض هذه القرية اليهودية ، وطالبوا بتقسيم اراضى هذه الأقطار عليهم .

ولم يطف بذهن واحد من القائلين بذلك ، أن مفهوم الغنـــائم هو ما يغنمه المحاربون من أسلحة محاربيهم ، وما يكون لهم من أموال منقولة وأمتعة وملابس . اما اراضى الدول وسكانها ، فلاتصير ولا يصيرون غنائم لمجرد أن جيشهم قد هزم .

وقد أدرك عمر بن الخطاب ، وهو الذى أنار الله قلبه ، وألهمه حكمة الاسلام ، وقد رأينا كيف كان يشير بالرأى على رسول الله ، فلا يلبث القرآن أن يقره على رأيه ، نقول : أدرك عمر ما فى هذا القياس من فساد ، فوزع على المحاربين ما غنموه من أسلحة وأمتعة ومنقولات طبقا للقاعدة المتبعة ، ولكنه توقف فيما يتعلق بما طالبه به بلال وغيره من الصحابة من توزيع الأراضى .

وكتب الى سعد بن أبى وقاص يقول له :

أما بعد .. فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابى هـــذا ، فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العســـكر من كراع ومـــال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهـــار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء (١) .

---

(١) الخراج لأبى يوسف .

ولأنقل لك نص ما جاء فى كتاب الخراج من خلاف فى الرأى بين عمر وبقية الصحابة ، وكيف حل النزاع فى خاتمة المطـاف عن طريق التشاور بين الصحابة .

عمر بن الخطاب : اذا وزعت الأرض ، فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها (أى مزارعيها) قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ما هذا برأى .

عبد الرحمن بن عوف : فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم .

عمر بن الخطاب : ما هو الا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، ووالله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل أن يكون كلا على المسلمين . فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشـام بعلوجها ، فما يسد به الثغور ، وما يكون للذرية والأرامل بهـذا البلد وبغيره من أراضى الشام والعراق .

ولكن الفريق المخالف أكثروا من القول على عمر رضى الله عنه وكان أشدهم فى ذلك بلالا والزبير بن العوام رضى الله عنه وقالوا يحتجون عليه :

ــ أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

يقول ابو يوسف : فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول هذا رأى .

قالوا : فاستشر .

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا . فأما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان

وعلى وطلحه وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر . ثم أرســـل عمر الى عشرة من الأنصار خمســـة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم .

فلما اجتمعوا خطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعـــوا هـذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فو الله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به الا الحق .

قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين .

قال : قد سمعتم هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وانى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظلمتهم شـــيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت . ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وارضهم وعلوجهم . فقسمت ما غنموا من أموال بين اهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضـــع عليهم فيها الخـراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية لمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هـــذه المدن العظـــام — كالشـــام والجزيرة والـكوفة والبصرة ومصر — لابد لهـــا من أن تشـــحن بالجيوش ، ودرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هـــؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج ؟؟

فقالوا جميعا ، الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، فان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون

به رجع أهل الكفر الى مدنهم . وعلى ذلك استقر الرأى بما أشار به سيدنا عمر .

يقول أبو يوسف : وقد كان بلال من أشد المعارضين لسيدنا عمر « انتهى » .

فكان سيدنا عمر يقول : اللهم اكفنى بلالا واصحابه .

وثمة روايات أخرى تقول ان سيدنا عمر وجد حجة من كتاب الله لدعم رأيه وهى الآيات من سورة الحشر والتى تقول :

« ما أفاد الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... » .

فاستدل سيدنا عمر من ذلك على كراهية القرآن ، أن تكون الغنيمة حكرا على الأغنياء .

وتمضى الآيات فتقول :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ... » .

الى أن تقول الآيات :

« والذين جاءوا من بعدهم » .

يقول سيدنا عمر ، على ما جاء في هذه الرواية : « ما أرى هذه الآية الا عمت الخلق كله حتى الراعى بكداء » .. ثم قال : « أتريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شىء ، فماذا لمن بعدكم ، ولولا آخر الناس ما فتحت قرية الا وقسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر » .

ويعلق القاضى أبو يوسف على تصرف سيدنا عمر بقوله :

« والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك ، كان توفيقا من الله له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة المرتزقة والله أعلم بالخير حيث كان » .

ويعلق فون كريمر فى كتابه مبادىء الاسلام (١) على هذا الاصلاح العمرى فيصفه بأنه نظام اشتراكى ، حيث لم يسمح بتوزيع الأراضى ، وانما يجمع المال وينفقه على المستحقين ، وأضاف على ذلك قوله : وقد دعم عمر بذلك روح التسامح بكل قوة ، تلك الخصلة التى امتاز بها الاسلام كصفة خاصة به ، والتى بقيت طابعا له طوال ألف عام حتى وقتنا الحاضر ، تلك الروح التى كان لها أثر بعيد طيلة هذه الأحقاب ، باعتبارها مبدأ أساسيا للحياة الاسلامية كلها .

---

(١) الدكتور على حسن عبد القادر ــ نظرية عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى .

الفصل الرابع

قضية الفقه الدائمة بين مدارس الفقه الإسلامي

الشيعة ــ الخوارج ــ مدرسة الحديث ــ أصحاب الرأى
مالك ــ أبو حنيفة ــ الشافعى ــ احمد بن حنبل

من عهد سيدنا عمر حتى الفتنة :

انتهى عهد عمر بن الخطاب ، بعد أن تم وضع أسس الدولة الاسلامية وأنظمتها الرئيسية ، وسياستها ، ومنهاجها ، على الوجه الأكمل ، والتى تؤلف ذخيرة العالم الاسلامى حتى اليوم وزاده الروحى ، والتى ما فتىء الناس حتى فى عصرنا الحديث يتطلعون صوبها ليستدفئوا بوهجها ، ويستضيئوا بنورها ، ويستلهموا مبادئها وقواعدها .

وقد كان استشهاد سيدنا عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة فيروز المجوسى ، نذيرا بالأعاصير التى لم تلبث أن هبت على العالم الاسلامى .

فان موجة الفتوح الاسلامية التى ظلت مستمرة فى عهد الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) وانتشار الصحابة فى البلاد المفتوحة ، قد حول مراكز القوى الى خارج المدينة المنورة .

وليس يتصل بموضوع هذا الكتاب ، طبقا للمنهج الذى التزمناه فى المقدمة ، أن نتعرض للمنازعات الحادة العنيفة التى اشتجرت فى أواخر حكم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، مع أن الخلافات فى الرأى التى ثارت حول أسلوب سيدنا عثمان فى الحكم ، كان يمكن أن تتخذ نموذجا رائعا للحياة الديمقراطية ، حيث يقوم حزب معارض يتعقب تصرفات الحزب الحاكم بالنقد ، الذى قد يصيب ويخطىء ، ولكنه مفيد للحاكم وحزبه فى كلتا الحالتين ، اذ يجنبه الزلل والشطط .

على أنه يحول بيننا وبين ذكر هذه القضايا والمنـازعات التى تؤلف قضيه كبرى من قضايا الرأى فى الاسـلام ، هذه النهايه المفجعة التى ختمت بها حياة سيدنا عثمان ، والتى كانت ايذانا بتدفق نهر الدماء ، الذى لم ينزف من أعداء المسلمين ، وانما نزف من دم المسلمين أنفسهم ، بل ومن كبار صـحابتهم ، حيث دارت المعارك الحربية بين سيدنا على بن أبى طالب الخليفة الرابع ، وبين المنادين بأخذ الثأر بدم سيدنا عثمان يتزعمهم معاوية بن أبى سفيان ، الذى استثار نزعات الجاهلية فى الأخذ بالثأر والمناداة به . وبعث مرة أخرى هـذا التنافس القديم بين بنى هاشم وبين الأمويين . وتصاول الورع الاسلامى والتقى والهدى المحمدى يمثله على بن أبى طالب ، والدهاء والقدرة على المناورة السياسية ، والتزام مبدأ الغاية تبرر الوسيله كما يمثله معاوية بن أبى سفيان ، وارثا عن أبيه خصومته ولدده لسـيدنا محمـد وآل بيته يمثلهم عـلى ابن أبى طالب .

الخـوارج :

وأتعس من هذا الخلاف بين سيدنا على وبين معاوية ، هذا الانشقاق الذى وقع فى صفوف أنصار سيدنا على ، عندما اضطره فريق من أتباعه الى قبول التحكيم الذى اقترحه أهل الشام برفعهم المصاحف لتكون حكما بينهم وبين أهل العراق . وعلى الرغم من أن سيدنا على حذر أنصاره ، وحثهم على المضى فى القتال ، مذكرا اياهم أن خصمهم لم يرفع المصاحف الا عندما أحس بدنو الهزيمة ، فليس رفعها الا خدعة لكسب الوقت وايقاع الخلاف بين صفوف العراقيين .. رغم ذلك فقد أصم جمهور كبير من رجال سيدنا على ، آذانهم عن سماع هذا التحذير ، وقالوا كيف نحارب قوما ، يطلبون الاحتكام الى كتاب الله .

فلما أن نزل سيدنا « على » على حكمهم ، وقبل مبدأ التحكيم ، وكان ما كان فى هذا التحكيم من خديعة عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى ، اذ حمله على خلع سيدنا على ، فى الوقت الذى ثبت فيه صاحبه معاوية ، انقلب دعاة التحكيم من العــراقيين ، الى ساخطين على مبدأ التحكيم ، واعتبروا قبول سيدنا على للتحكيم خطيئة كبرى وذنبا عظيما يجب أن يتوب عنه ويستغفر الله ، فلما أبى سيدنا على أن يعتبر قبوله التحكيم ذنبا وخطيئة ، فقد أراد به حقن دماء المسلمين ، وأنه قبله كارها نزولا على مشورتهم ، أبوا الا أن يعلن خطأه وأن يستغفر الله عن هذا الذنب ، وصاحوا فى وجهه « أن لا حكم الا لله » وأشهروا السيف فى وجه كل من لا يقول بقولهم .

وهكذا تبدأ قصة الخوارج غير الكريمة ، لما ســفكوه من دم وارتكبوه من شنائع باسم الورع والتقوى . وانها لاحدى المآسى الاسلامية ، أن نرى هذا النفر من الخوارج ، ممن أجمع أعــداؤهم قبل انصارهم على أنهم كانوا مثال الورع والتقوى والتفقــه فى الدين ، بل والنبوغ فى الشعر والأدب والخطابة ، يجرهم تعصبهم الأعمى ، الى الاستهانة بسفك الدم الحرام ، مما سود صفحتهم فى تاريخ الاسلام . وقد انقسم الخوارج فيما بينهم ، شأن كل جماعة متعصبة ، الى عديد من الفرق والجماعات انتســبت كل منها الى زعيم قادها ، فكان منهم الأزارقة والصفرية ، والنجدات والعجــاردة ، كما وجدت فرق منهم خرجت عن تعاليم الاســلام بالكلية فلا يعدونها من المسلمين ، مثل اليزيدية والميمونية .

فقه الخوارج :

ومع ذلك فقد ترك الخوارج أثرهم فى قضية الفقه الاسلامى ، اذ اتفقوا على بعض المبادىء التى خالفوا فيها جماهير المسلمين ،

على أن بعضـــها يعكس روح الاســـلام الديمقـــراطية الأصيلة والتى تتمثل فى قول القرآن الكريم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـــعوبا وقبـــائل لتعـــارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. » .

(١٣ الحجرات)

واليك هذه المبادىء :

١ ــ لا يكون اختيار الخليفة الا بالانتخاب الذى يقوم به عامة المسلمين لا فريق منهم . ويستمر الخليفـــة خليفـــة ما دام قائما بالعدل مقيما للشرع مبتعدا عن الخطأ والزيغ .

٢ ــ لا يختص بيت من بيوت العرب بأن يكون الخليفة منه ، فليست الخلافة فى قريش كما يقول جمهور المسلمين ، وليست لعربى دون أعجمى ، والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسهل عزله ان خالف الشرع وحاد عن الحق ،اذ لا تكون له عصبية تحميه ولا عشيرة تؤويه .

٣ ــ وذهب النجدات من الخوارج الى حد القول بأن لا حاجة للمسلمين لاقامة امام ، اذا أمكن أن يتناصف الناس فيما بينهم (١) ، فان رأوا أن التناصف لا يتم الا بامام يحملهم على الحق ، فأقاموه فان ذلك جائز . أى أن اقامة الامام عندهم ليست واجبة بالشرع ، وانما جائزة ، فاذا اقتضـــت المصلحة اقامتها وجبت من هـــذه الناحية .

٤ ــ واخيرا يقرر الخوارج المبدأ الذى جعلهم يقفون فى وجه المسلمين شعوبا وحكومات ، وهو تكفير أهل الذنوب ، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب ، واعتبروا مجرد الخطأ فى الاجتهاد بالرأى ذنبا ــ

---

(١) سبق النجدات بذلك جماعة الفوضويين الذين يقولون بعدم ضرورة الحكومة .

وعلى هذا الأساس كفروا سيدنا على بن أبى طالب لقبوله التحكيم ، وقد أصروا على تكفيره مثبتين بذلك عقيدتهم فى أن الخطأ فىالاجتهاد يخرج المخطىء من الدين ويحوله الى كافر يستحلون دمه .

التمسك بظاهر النصوص :

وقد استند الخوارج على ظاهر الألفاظ لتقرير هذا المبدأ الخطير مثل قوله تعالى : « ... ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » .

(٩٧ آل عمران)

فتعلقوا بظاهر اللفظ وقالوا ان تارك الحج كافر .

ومثل قوله تعالى فى شأن يوم القيامة : « وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » .

(٣٨ ــ ٤٢ عبس)

ولما كان الفاسق فى رأيهم لا يمكن أن يكون وجهه يوم القيامة الا مغبرا ، فهو اذن من الكفرة الفجرة .

ومنها قوله تعالى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

فالظلم جحود ــ والجحود كفر ــ والفاسق ظالم فهو كافر جاحد (١) .

الشيعة :

انقسم المسلمون منذ موقعة صفين الى سنيين وشيعة . فأما أهل السنة فهم أهل الجماعة الاسلامية الذين نجح معاوية ابن

---

(١) محمد أبو زهره ــ الامام زيد .

أبى سفيان فى جمعهم تحت لواء الدولة وخاصة بعد اغتيال سيدنا علي بن أبى طالب على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم ، وتنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية ، فأصبح معاوية بذلك من جديد الحاكم الوحيد للعالم الاسلامى ، بحيث أطلق على العام الذى انفرد فيه معاوية بالسلطان عام الجماعة وهو عام ٤١ هـ .

ولكن أنصار سيدنا على من أهل العراق الذين فجعوا بموته بين ظهرانيهم ، قد ازدادوا تمسكا بحبهم له بعد موته ، ولم يعجبهم تنازل الحسن لمعاوية ، فظلوا على ولائهم لآل بيت على باعتبارهم هم الائمة وهم الأحق بالخلافة .

ولا جدال أن العراقيين تأثروا فى هذا الاتجاه بعاملين ، الأول ، انتقال مركز السلطة من العراق الى الشام وهو مالا يحبونه بطبيعة الحال ، أما العامل الثانى فتقاليد العراقيين الموروثة عن الفرس فى أن الحكم يكون بالميراث فى عائلة الملك ، ومن أولى بالملك من عائلة سيدنا محمد نبى المسلمين .

وهكذا تشيع العراقيون وآل فارس لسيدنا على بن أبى طالب وأبنائه من بعده ، وكان هذا التشيع فى حقيقته اتجاها سياسيا، وحزبا معارضا ضد الأمويين الذين تمسكوا بالعروبة ، وأخضعوا غير العرب من المسلمين للعرب .

وعلى هذا الأساس قامت الشيعة فى بادىء الأمر حزبا سياسيا معارضا .

على أن النكبات التى انهالت بعد ذلك على رأس أبناء على وأحفاده ، ابتداء من استشهاد الحسين سيد الشهداء فى كربلاء ، قد ألهبت عواطف بعض المسلمين فزادتهم تعلقا وتطرفا فى نظرتهم الى سيدنا على وتقديسه مما سنفصله بعد قليل .

ونشط بنو العباس لاستغلال عواطف أهل فارس فى التعلق بآل البيت ، فجمعوا الخراسانيين تحت لوائهم ، وألفوا منهم قوة عسكرية استطاعوا أن يسقطوا بها الدولة الأموية ، وأن يقيموا الدولة العباسية نسبة الى على بن عبد الله بن العباس عم النبى ، منتزعين هذا الحق من أولاد سيدنا على ، ولم يلبث العباسيون أن أصبحوا أشد نكيرا على الشيعة من الأمويين أنفسهم ، مما جعل الشيعة تتوارى عن الأنظار ، وتسلك سبيل العمل السرى فى الخفاء ، وسوف نتقابل فيما بعد مع بعض فرق الشيعة وقد تحولت الى جمعية اغتيال وفتك تحت اسم الباطنية .

عقيدة الشيعة وفهمهم :

ولسنا نؤرخ فى كتابنا هذا للشيعة ومواقعهم الحربية وانتصاراتهم وهزائمهم العسكرية ، وانما يعنينا من ذلك كله الجانب العقائدى والفكرى باعتباره يؤلف جزءا كبيرا من التراث الاسلامى ومعارك الرأى فى تاريخ الاسلام .

نظرة الشيعة الى الامامة ومكانة سيدنا على :

والامامة فى اعتقاد الشيعة ليست من مصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم له . بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبى اغفالها وتفويضها للأمة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله عليه وسلامه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم (١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

وإذا كانت هذه هي نقطة البداية للشيعة ، فانهم افترقوا بعد ذلك الى عديد من الفرق ، فلم يقف بعضهم عند حد جعل سيدنا على هو الامام المختار ، بل ارتفعوا به الى مرتبة النبوة وزعم بعضهم أن جبريل أخطأ عندما نزل بالوحى ، فذهب الى سيدنا محمد بدلا من سيدنا على ، ومنهم من وصل الى تأليه سيدنا على وقال له أنت الله · ومنهم من زعم ان الله قد حل فى الأئمة على وبنيه من بعده ، وهو قول يوافق مذهب المسيحيين فى القول بحلول الله فى عيسى ·

وهكذا تحول بعض المذاهب الشيعية ، الى خليط من المذاهب والمعتقدات الهندوكية والفارسية والمسيحية ، وتعـــددت فرقهم ومذاهبهم فكان منهم السبئية اتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى كان يؤله سيدنا على ، فأمر « الامام على » بحرقه ، ومنهم الكيسانية أتباع المختـــار بن عبيـــد الثقفى ، والامامية ، والاثنى عشرية ، والاسماعيلية أو الباطنية · ومنهم اليزيدية الذين يعتبرون أقــرب فرق الشيعة الى الجماعة الاسلامية حيث لا يغلون فى معتقداتهم ، ولا يكفرون أحدا من أصحاب رســول الله ، ولا يرفعون الأئمة الى مرتبة النبوة فضلا عن الألوهية وهؤلاء هم أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى يعتبر بحق أحد كبار أئمة الفقه الاسلامى وقد تلقى عنه الامام مالك وأبو حنيفة ، كما تلقيا ورويا عن جعفر الصادق وأبيه من قبله الامام محمد الباقر · ومرة أخــرى ليس باستطاعتنا أن نتعرض للفقه الشيعى ، وما جرى بينه وبين فقه أهل السنة من خلاف وقضايا ، بل وما جرى داخل الفقه الشيعى نفسه من قضايا وانما نجتزىء بهذه الاشارة ، لنسرع نحو تفصيل ما يعتبر بحق قضية الرأى المستمرة فى الفكر الاسلامى ونعنى بها :

الخلاف بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأى :

اذا كانت الفتنة التى قامت فى أخريات عهد سيدنا عثمان واستغرقت أيام حكم سيدنا على قد مزقت العالم الاسلامى ، بين شيعة سيدنا على وخصومه ، فقد انتهى ذلك كله فى الحادى والأربعين للهجرة كما أشرنا من قبل ، وعادت للمسلمين وحدتهم فى ظل البيت الأموى الذى حول الخلافة الى ملك بالتوارث ، ولكن الذى لا شك فيه أن ذلك قد هيأ للعالم الاسلامى فى مجموعه جوا من الاستقرار ، يؤكد ذلك أن موجة الفتوح الاسلامية قد عادت الى انطلاقها شرقا وغربا ، فامتدت فتوحات المسلمين شرقا الى حوض نهر السند فى الهند ، بينما دخل الاسلام لأول مرة الى اسبانيا فى أوربا ، مبتدئا هذه الصفحة الاسلامية المشرقة فى الأندلس .

ازدهار الفقه الاسلامى :

وفى ظل هذه الامبراطورية المترامية الأطراف ، التى أصبح يرفرف عليها لواء الاسلام ، اشتدت الحاجة الى التشريعات والقوانين التى تحكم هذه الأقطار والدول والممالك ، التى كانت تتباين فى كل شىء ، من حيث جغرافيتها ومناخها وتاريخها ، وبالتالى عقائدها وتقاليدها ، ونشأت الحاجة الى الاجتهاد لسببين :

الأول — عدم وصول النصوص الاسلامية من القرآن والسنة الى كل ركن من أركان هذه الدولة .

الثانى — انه عند وجود هذه النصوص ، فانها لا يمكن بذاتها أن تطبق على هذه الأحوال الجديدة التى لم تكن معهودة عند وجود هذه النصوص .

ومن هنا أصبح الاجتهاد واجبا . وقد لخص الشهرستانى هذه القضية فى عبارة منطقية موجزة اذ قال :

« ان الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدد ، ونعلم قطعا أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك ايضا .

والنصوص اذا كانت متناهية ، فالوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعا أن كلا من الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد(١) » هذا الاجتهاد الذى فرضه الواقع على علماء المسلمين قد انتهى بهم الى قضية من أكبر قضايا الرأى فى الاسلام ، ولا تزال هذه القضية محتدمة ، وستظل دائما أبدا فى احتدام ، لأنها خلاف بين نظرتين من نظرات العقل البشرى فى كل زمان ومكان ، وهو الذى أشرنا اليه فى مقدمة كتابنا ، عن أصحاب التفكير المثالى ، وأصحاب التفكير المادى ، والذى يأخذ فى باب التشريع ، صورة المتمسكين بالنصوص ، وصورة من يستلهمون النصوص معانيها ويقيسون عليها برأيهم ، وهو خلاف وجد وسيظل يوجد ، فى كل المجتمعات وبين صفوف العلماء والمفكرين من كل ملة وجنس .

نموذج من عصر النبى :

وقد حمل لنا تاريخ النبى صلوات الله عليه ، نموذجا رائعا لهذا الانقسام الطبيعى فى الرأى .

---

(١) « الاسلام ورسوله بلغة العصر » للمؤلف .

فقد أمر النبى صلوات الله عليه بعد غزوة الأحزاب[1] ، مؤذنا اذن فى الناس بقوله : « من كان سامعا ومطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة » (أى لحربهم وقتالهم) فالتزم بعض الصحابة نص اللفظ فلم يصلوا العصر الا فى بنى قريظة التى وصلوها فى الليل ، فصلوا العصر بعد صلاة العشاء . بينما نظر فريق آخر الى المعنى فصلوا العصر فى الطريق ، وقالوا انه لم يرد منا تأخير صلاة العصر ، وانما أراد سرعة النهوض والاستحثاث عليه .

ويقول ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » تعليقا على هـذا الحادث « فالأولون هم سلف أهل الظاهر ، والأخيرون سلف أصحاب المعانى والقياس » .

والذى يجب أن يستوقفنا من هـذا الحـادث ، أن الرسول صلوات الله عليه لم ينكر على أى من الفريقين فهمه واجتهـاده ، كما أن القرآن لم ينزل بالانكار على أى منهما . ممـا دل على أن الأعمال بالنيات ولـكل امرىء ما نوى . وأن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر اجتهاده .

وعلى ذلك فلا يجب أن يدهشنا أو يفاجئنا ، أن نرى الصحابة بعد رسول الله ، ثم تابعيهم ومن تلقى العلم من هؤلاء التابعين قد انقسموا الى فريقين : فريق اشـتهر باسم أصحاب الحديث ، وفريق عرف بأنه صاحب الرأى . والفريقان يتفقان على الأصول ، ولـكنهما يختلفان فى الفروع ، فحيث لا يتهيب أصحاب مدرسة

---

(١) غزوة الأحزاب أو الخندق ، هى الغزوة التى زحفت فيها قبائل العرب بزعامة قريش نحو المدينة للقضاء على الاسلام ورسول الله ، ولكن الدائرة دارت على المشركين . وقد انتهز يهود بنى قريظة فرصة الحصار المفروض على المدينة ، لكى يغدروا بالمسلمين ، مما كان يمكن أن يؤدى الى كارثة ماحقه لولا أن تدارك الله المسلمين بالنصر .

الحديث التحديث عن رسول الله ، فى الوقت الذى يتهيبون فيه ابداء الرأى ، فان اصحاب الرأى يتهيبون التحديث عن رسول الله ، فى الوقت الذى لايتهيبون فيه ابداء الرأى وكان مركز مدرسة الحديث هو المدينة المنورة ، ومركز مدرسة الرأى فى الكوفة بالعراق . واحتدمت المعركة بين أصحاب المدرستين ، ولكنها لم تكن قضية تراق فيها الدماء ، كقضايا الخوارج والشيعة ، بل قضايا رأى تتصاول فيها العقول ، وتتقارع الحجج والأدلة ، ولذلك حق لها ان تأخذ سبيلها الى كتابنا هذا على شىء من التفصيل .

مدرسة الحديث فى المدينة :

قامت مدرسة الحديث فى المدينة وحق لها أن تقوم بها ، فالمدينة هى دار هجرة رسول الله ، أقام بها عشر سنوات ، وتزوج بها ، وتتابع نزول الوحى فيها بآيات الأحكام والتشريع ونظام المجتمع الاسلامى . وكان رسول الله هو الرسول والامام الذى يرجع اليه كل من فى المدينة للفصل فى خلافاتهم ، ولحل مشاكلهم وكان الصحابة من حوله يرصدون كل حركاته ، ويتلقفون كل أقواله وارشاداته ، ولا تفوتهم تسجيل اشاراته ، ليس فقط بالنسبة لما قال أو فعل أو أشار به ، بل وبالنسبة لما سكت عنه ولم ينه مع انه كان قائما وجاريا .

وعن هذا الطريق ، طريق محاكاة أعمال الرسول ، استمد المسلمون الكثير من أسس دينهم ، مما أجمل ذكره القرآن . كهيئة الصلاة ، وعدد الركعات فى كل صلاة ، ونصاب الزكاة وكيفية الحج وهكذا .

وظلت المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طوال أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، هى حاضرة الدولة الاسلامية ومركز

الاشعاع ، ومصدر التشريع ، ومسكن العدد الأكبر من صحابة رسول الله ، والذين ظلوا يقضون فى المدينة ويفتون ، طبقا لما فهموه من القرآن والسنة كما تلقوها مباشرة عن الرسول .

ولم يمت هذا الجيل من الصحابة ، الا بعد أن خلف جيلا من التابعين الذين تلقوا علمهم ، وعن هؤلاء أخذ أتباع التابعين من العلماء ، حتى اذا كانت نهاية القرن الأول الهجرى ، كان علم المدينة بمن كان فيها من الصحابة ، ومن قبلهم الخلفاء الراشدون ، وقبل الجميع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد انتهى الى سبع نفر وهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبيد الرحمن بن الحارث ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ،وعبيد الله ابن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت .

الامام مالك بن أنس :

وقد انتهى علم هؤلاء الى فقيه المدينة العظيم الامام مالك ابن أنس(١) المولود على الأصح سنة ٩٣ هجرية ، والمتوفى سنة ١٧٩ هـ والذى يعتبر بالاتفاق رأس مدرسة الحديث ، ذلك أنه كان أول من عمل على جمع الأحاديث بطريقة منظمة وتدوينها وترتيبها لتكون أساسا للتشريع والفتوى ، فكان كتابه الخالد « الموطأ » أول جامع للأحاديث . وكان من الطبيعى جدا أن يتخذ الامام مالك عمل أهل المدينة عند مايجمعون على أمر ، أصلا من أصول التشريع عند افتقاد النص ، بل وعند وجود النص ، ان كان من نوع أحاديث الآحاد أى الذى انفرد صحابى واحد بروايته

---

(١) للوقوف على شخصية الامام مالك بن أنس وعظمتها ومدى علمها وتقواها وورعها ــ طالع كتاب مالك بن أنس لأمين الخولى ــ ومالك ــ لمحمد أبوزهره .

فان عمل أهل المدينة فى هذه الحالة كان يقدم عند مالك على هذا الحديث باعتبار ان عمل أهل المدينة سنة مأثورة مشهورة ، والسنة المشهورة مقدمة على أخبار الآحاد ٠

مدرسة الرأى فى العراق :

فى مقابل هذه المدرسة ، التى عاشت فى بيئة رسول الله ، وفى فيض من ذكريات رسول الله وأحاديث رسول الله ، وأعمال رسول الله ، قامت مدرسة أخرى فى بيئة كانت موطنا للأكاسرة من حكام الفرس ، ومثوى حضارة عريقة ، حيث يعيش الشعب العراقى بتقاليده وعاداته الموروثة ، ويطبق فى معاملاته ما لا عهد للمسلمين به من قبل .

وكان المسلمون قد انشأوا لأنفسهم مذ فتحوا العراق بلدا اتخذوه حاضرة لهم ، وهو الكوفة ، والى هذه الكوفة أرسل عمر بن الخطاب قاضيه شريح وأبا موسى الأشعرى ، كما أرسل اليها صحابيا جليلا ليفقه المسلمين فى دينهم وهو عبد الله بن مسعود ، أحد أوعية العلم الاسلامى باتفاق . وكان ابن مسعود ممن يتهيبون ذكر الحديث عن رسول الله ، خوفا من أن يخطىء فيه فيكون قد كذب على رسول الله ، بحيث قال عنه أبو عمر الشعبانى كنت أجلس الى ابن مسعود حولا ، لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته رعدة وقال : هكذا أو نحو ذا .

وكان عبد الله بن مسعود ممن يتابعون سيدنا عمر فى أحكامه وأقضيته ، وقد رأينا كيف كان سيدنا عمر يعمل الرأى ويعلى من

شأن الاجتهاد ، ولم يلبث أن أصبح ابن مسعود صاحب مدرسة تؤثر ابداء الرأى عن التحديث عن رسول الله .

ولقد مر بنا أن سيدنا على بن أبى طالب ، قد نقل كرسى الخلافة الى الكوفة ، وعلى بن أبى طالب كان بدوره بحرا من بحور العلم ، وكانت له اجتهاداته وأقضياته التى خالف فيها ما قضى به أبو بكر وعمر .

وكما انتهى علم المدينة الى سبعة فقهاء فكذلك انتهى علم الكوفة الى ستة فقهاء : هم علقمة بن قيس النخعى ، والأسود بن يزيد النخعى ، ومسروق بن الأجدع الهمدانى ، وشريح بن الحارث القاضى، وعامر بن شرحبيل الشعبى ، وابراهيم النخعى .

ولعل ابراهيم النخعى هو من تمثلت فيه خصائص مدرسةالرأى فقد كان يقول : انى لأسمع الحديث فأنظر الى ما يؤخذ منه وأدع سائره .

وقيل له : يا أباعمران ، أما بلغك حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم تحدثنا به ،قال بلى ،ولكنى أقول قال عمر ، قال عبد الله، قال علقمه ، قال الأسود ، أحب الى واهون . وذلك تفاديا لأى خطأ يقع منه فى رواية الحديث أو فى تأويله .

وكان ممن تلقوا علم ابراهيم النخعى، حماد بن سليمان الأشعرى وهو من أبرز شيوخ أبى حنيفه .

وكما أصبح الامام مالك فى المدينة هو رأس مدرسة الحديث ، فان أبا حنيفة قد أصبح رأس مدرسة الرأى فى الكوفة .

وأبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن المرزبان ، ولد بالكوفة عام ٨٠ من الهجرة على الرأى الراجح ، وكانت وفاته عام ١٥٠ هـ وهو فارسى النسب من موالى بنى تيم على المشهور وقد حذق كل فروع

العلم الاسلامى التى كانت سائدة فى عصره ، فحفظ القرآن ، وعرف قدرا من الأحاديث والأدب والشعر ، ثم حذق علوم الجدل على طريقة المتكلمين ، ولكنه انصرف بعد ذلك وانقطع للفقه ، فوصل فيه الى الذروة التى لاتطاولها ذروة بحيث أطلق عليه اسـم الامـام الأعظم (١) .

القياس أساس مدرسة الرأى :

وأهل الرأى كما انتهت زعامتهم الى أبى حنيفة ، لا يمازون كأصحاب مدرسة الحديث فى وجوب التزام النص القرآنى والحديث الصحيح الثابت عن رسول الله ، وأن لااجتهاد عند وجود النص — ولكن الخلاف يبدأ بين المدرستين فيما يعتبر حديثا ثابتا عن رسول الله ومدى الأخذ به اذا تعارض مع نصوص القرآن، والقطعى من الأحكام والمبادىء الكلية للاسلام .

فاذا حدث هذا التعارض ، كما لو شك فى نسبة الحديث الى رسول الله ، فان أبا حنيفة وأصحابه يؤثرون الأخـذ بالقياس ، حيث يؤثر أصحاب مدرسة الحديث ، الأخذ بالحديث ولو كان ضعيفا ولو كان مرسلا على الأخذ بالقياس .

والقياس كما عرفه الأصوليون هو : بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة ، أو الاجماع لاشتراكه معه فى علة الحكم .

---

(١) يطلق على الحى الذى يقوم فيه مسجد ابى حنيفه فى بغداد اسم الأعظمية نسبة الى الامام الأعظم — وللاحاطة بمناقب الامام ابو حنيفة يطالع كتاب أبو حنيفه — محمد ابو زهره — وأبو حنيفه — لعبد الحليم الجندى .

حديث معـــاذ :

وأصحاب الرأى يرون أن القياس بهذا التعريف ، ، أصل من أصول الشريعة ويحتجون بحديث روى عن رسول الله عندما وجه معاذ بن جبل الى اليمن فقد سأله بماذا يقضى ؟ فأجاب معاذ :أقضى بكتاب الله ، فان لم أجد فبسنة رسول الله ، فان لم أجد اجتهـد رأيى ولا آلو . فضرب رسول الله على صدر معاذ وقال : الحمـد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ـ « رواه أحمد وأبو داود » .

رسالة عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى :

وكتب سيدنا عمر بن الخطاب رسالة الى أبى موسى الأشـعرى عندما ولاه القضاء فى العراق ، تعتبر دستور القضاء الاســلامى وقد جاء فى أولها :

القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ...

وانتهت الرسالة بحث عمر لأبى موسى الأشعرى على الاجتهاد عن طريق القياس عند غياب النص بقوله:

ثم الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى قرآن أوسنة، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق » .

بين الامام الباقر وأبى حنيفة :

وقد أسرعت مدرسة الحديث فوجهت الاتهام لمدرسة الرأى بأنها مرقت عن الدين الاســـلامى ، وغيرت وبدلت ، وابتدعت ، وكان

أبو حنيفة الذى أصبح علما على مدرسة الرأى واصطناع القياس الهدف الأول لحملات أصحاب مدرسة الحديث · واليك حوارا دار بين الامام الباقر حفيد سيدنا على باعتباره من أئمة الحديث ، وبين أبى حنيفة عندما اجتمعا لأول مرة فى المدينة :

الامام البـــاقر : أأنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس ؟

الامام أبوحنيفة : معاذ الله !

الامام البـــاقر : بل حولته .

الامام أبوحنيفة : اجلس مكانك كمـا يحق لك ، حتى أجلس كمـا يحق لى ، فان لك عندى حرمة كحرمة جـدك صلى الله عليه وسلم فى حياته على أصحابه .

فجلس الامام الباقر وجثا الامام أبو حنيفة بين يديه ثم قال :

أبو حنيفة : انى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى : الرجل أضعف أم المرأة ؟

البـــاقر : المرأة .

أبو حنيفة : كم سهم المرأة « أى من الغنائم »

البـــاقر : للرجل سهمان وللمرأة سهم .

أبوحنيفة : هذا قول جدك « يعنى حكم الاسلام » فلو كنت حولت دين جدك لـكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجـل سهم وللمرأة سهمان لأنها أضعف من الرجل .

ثم قال : الصلاة أفضل أم الصوم ؟

البـــاقر : الصـــلاة .

أبو حنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لـكان القياس أن المرأة اذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم .

ثم قال :

أيهما أنجس البول أم النطفة ؟

البـاقر : البول .

أبوحنيفة : فلو كنت حولت دين جدك بالقياس لـكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة ، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس .

فقام محمد الباقر وقبل وجهه وأكرمه(١) .

ومعنى هذا الذى قاله أبو حنيفة ، أنه ما كان ليسمح لنفسه أن يغير فى دين الله أو يبدل ما جاء فيـه نص صريح ثابت عن رسول الله ، وانما اجتهاده اذا اجتهد ، حيث لا يوجد حـديث عن رسول الله ، أو حيث يشك فى نسبة الحديث الى رسول الله .

الأوزاعى وأبو حنيفة :

وكان الأوزاعى فقيه الشام ومن معاصرى أبى حنيفـة ممن هاجموه ، اذ قال لعبد الله بن المبارك : من هذا المبتدع الذى خرج من الـكوفة ويكنى أبا حنيفة ، فلم يجبه ابن المبـارك ، بل أخذ يذكر مسائل عويصة ، وطرق فهمها والفتوى فيها ، فقال الأوزاعى : من صاحب هذه الفتاوى ؟

---

(١) ابو حنيفه ــ محمد ابو زهره .

فقال عبد الله بن المبارك : شيخ لقيته بالعراق ٠

فقال الأوزاعى : هذا نبيل من المشايخ ، اذهب فاستكثر منه٠

قال ابن المبارك : هذا أبو حنيفة ٠

واجتمع الأوزاعى وأبو حنيفة بمكة فتذاكرا المسائل التى ذكرها ابن المبارك فكشفها ، فلما افترقا قال الأوزاعى لابن المبارك : غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله ، وأستغفر الله تعالى ، لقد كنت فى غلط ظاهر ، الزم الرجل فانه بخلاف ما بلغنى عنه ٠

مالك وأبو حنيفة :

واجتمع الامام مالك وأبو حنيفة فى المدينة ، وقابل الليث بن سعد مالكا عقب هذه المقابلة فوجده يمسح عرقه ، فسأله عن سبب ذلك فقال له : عرقت مع أبى حنيفة ٠٠ انه لفقيه يا مصرى ، ثم لقيت أبا حنيفة وقلت له ما أحسن قبول هذا الرجل منك فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام(١) ٠

فأنت ترى كيف كان أقطاب المدرستين اذا تلاقيا قدر كل منهما الآخر ، وأشاد بعلمه وبقدرته ، وليس وراء ذلك سمو فى احترام صاحب الرأى المخالف ٠

أبو حنيفة والخوارج :

وقدم وفد من الخوارج على أبى حنيفة فى المسجد ، وكان مذهبهم كما ذكرنا من قبل تكفير مرتكب الذنب ، فسألوا أبا حنيفة:

---

(١) مالك ــ محمد ابو زهره ٠

ـ هاتان جنازتان على باب المسجد ، أما احداهما فجنازة رجل شرب الخمر حتى كظته وحشرج بها فمات ، والأخرى امرأة زنت حتى أيقنت بالحمل فقتلت نفسها ـ فما الرأى فيهما ؟

أبو حنيفة : من أى الملل كانا ٠٠ أمن اليهود ؟

ـ لا ٠

ـ أمن النصارى ؟

ـ لا ٠

ـ أمن المجوس ؟

ـ لا ٠

ـ فمن أى الملل كانوا ؟

ـ من الملة التى تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٠

ـ فأخبرونى عن هذه الشهادة ، أهى من الايمان ثلث أم ربع أم خمس ٠

ـ ان الايمان لا يكون ثلثا ولا ربعا ولا خمسا ٠

ـ فكم هى من الايمان ٠

ـ الايمان كله ٠

ـ فما سؤالكم اياى عن قوم زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين٠

ـ دعنا عنك ـ أفمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ٠

ـ أما اذ أبيتم فانى أقول فيهما ما قاله نبى الله ابراهيم فى قوم كانوا أعظم جرما منهما : « فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » ٠ (٣٦ ـ ابراهيم) ٠

وأقول فيهما ما قاله نبى الله عيسى فى قوم كانوا أعظم جرما منهما : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (١١٨ ــ المائدة) .

وأقول فيهما ما قاله نبى الله نوح اذ قالوا : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال وما علمى بما كانوا يعملون ، ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤ ــ الشعراء)

وأقول ما قال نوح عليه السلام : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين » (٣١ ــ هود) .

وعندما سمع الخوارج هذا القول ألقوا السلاح (١) .

منهاج أبى حنيفة :

ولا أحسب أن القارىء يطلب منا فى هذه العجالة ، أن ندخل فى تفاصيل الخلاف بين مذهب مالك أو غيره من المذاهب التى يطلق عليها اسم مدرسة الحديث ، وبين مدرسة أبى حنيفة وما أطلق عليه اسم مدرسة الرأى . ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض العبارات التى تلخص منهجى أبى حنيفة ومالك .

فأما أبو حنيفة فينقلون عنه قوله : آخذ بكتاب الله ، فان لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه ، آخذ بقول من شئت وأدع من شئت ولا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم . فأما اذا انتهى الأمر الى ابراهيم ، والشعبى ، وابن سيرين ، وعطاء ، وسعيد بن المسيب ، وعدد رجالات ، فقوم اجتهدوا فاجتهد كما اجتهدوا .

---

(١) ابو حنيفة ــ محمد ابو زهرة .

منهاج مالك :

وقد لخص القاضي عياض منهاج الامام مالك في العبارة التالية: وأنت اذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأئمة ومآخذهم في الفقه، واجتهادهم في الشرع ، وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه الأصول منهاجها ، مرتبا لها مراتبها ومدارجها ، مقدما كتاب الله على الآثار ، ثم مقدما لها على القياس والاعتبار ، تاركا منها ما لم يتحمله الثقات العارفون لما تحملوه ، أو ما يجهلونه ، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ، ولا يلتفت الى من تأول عليه بظنه في هذا الوجه سوء التأويل ، وقوله ما لا يقوله ، بل صرح أنه من الأباطيل (١) .

تأثر كل من المدرستين بالأخرى :

ولعلك لن تلحظ كبير فرق بين المنهاجين ، وماذلك الالأن التفاعل بين الرأيين المتخالفين ، قد انتهى كما هو الشـــأن دائما بالتقريب بينهما وتأثر أصحاب كل مدرسة الى حد كبير بأقوال مخالفيهم في الرأي .

فأصحاب أبي حنيفة من بعده والذين أكملوا مذهبه وأصبحوا شركاءه فيه وعلى رأسهم محمد بن الحسن الشيباني وأبو يوسف القاضي ، قد عدلا عن بعض الأحكام التي قررها أبو حنيفة بموجب القياس عندما ثبت لديهم الحديث عن رسول الله .

بل أن محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة الأول قصد الامام مالك للاغتراف من علمه وروى عنه كتابه الخالد في الحديث

---

(١) المدارك للقاضي عياض ـ نقلها عنه ابو زهره في كتابه « مالك » .

والفقه ونعنى به «الموطأ»(١) ثم راح يفتى بناء على هذه الأحاديث بغير ما أفتى به أستاذه أبو حنيفة ، ايمانا منه وادراكا أن أبا حنيفة لو وصل الى علمه هذا الحديث لغير فتواه .

القاضى أبو يوسف ومالك :

ودخل القاضى أبو يوسف تلميذ أبى حنيفة الثانى فى حوار مع مالك ، أفحمه فيه الامام مالك فعدل عن بعض أقيسته وفتاويه . من ذلك أن أبا يوسف كان لا يرى الترجيع فى الآذان ومالك يراه ، فسأل أبو يوسف الامام مالك عن حديث فيه ، فانه لا تثبت عبادة بغير نص أو حمل على نص ، وقال له : كيف يؤذن بالترجيع وليس عندكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه حديث ، فالتفت مالك اليه وقال : يا سبحان الله ما رأيت أمرا أعجب من هذا ، ينادى على رؤوس الأشهاد فى كل يوم خمس مرات ، يتوارثه الأبناء عن الآباء من لدن رسول الله الى زماننا هذا ، يحتاج فيه الى فلان عن فلان ، هذا أصح عندنا من الحديث .

وسأله أبو يوسف عن مقدار الصاع ، فقال خمسة أرطال وثلث فقال أبو يوسف : من أين قلتم ذلك ، فقال مالك لبعض أصحابه : احضروا ما عندكم من الصاع ، فأتى أهل المدينة وعامتهم من أبناء المهاجرين والأنصار وتحت يد كل واحد منهم صاع يقول هذا صاع ورثته عن أبى عن جدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مالك : هذا هو الخبر الشائع عندنا أثبت من الحديث ، فرجع أبو يوسف الى قوله (أى قول مالك) (٢) .

---

(١) أعاد المجلس الأعلى للشئون الاسلامية طبع موطأ الامام مالك برواية محمد ابن الحسن الشيبانى وتحقيق الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٢) محمد ابو زهره ــ مالك ــ ص ٩٤ .

الامام مالك والرأى :

واذا كان هذا مدى تأثر أصحاب أبى حنيفة بفقه مالك والأخذ بعمل أهل المدينة ، فان مالكا وأصحابه لم يكونوا أقل تأثرا بمدرسة الرأى من تأثر هذه الأخيرة بهم · وليس هناك ما يكشف عن هذه الحقيقة ، وعن عظمة نفسية الامام مالك واحترامه للعلم واختلاف الرأى ، من أنه لم يوافق على فرض كتابة الموطأ ليكون دستورا للحكم فى سائر الأمصار الاسلامية · فقد قال له أبو جعفر المنصور: اجعل العلم يا أبا عبد الله علما واحدا ، وتجنب فيه شدائد عبدالله ابن عمر ، ورخص ابن عباس وشوذا ابن مسعود واقصد أواسط الأمور وما اجتمع عليه الصحابة ·

فرد عليه مالك بقوله : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرقوا فى البلاد فأفتى كل فى عصره بما رأى · وان لأهل هذا البلد (يعنى مكة) قولا ، ولأهل المدينة قولا ، ولأهل العراق قولا تعدوا فيه طورهم ·

فقال أبو جعفر : أما أهل العراق فلست أقبل منهم صرفا ولا عدلا ، وانما العلم عند أهل المدينة ، فضع للناس العلم ، فقال له مالك : ان أهل العراق لا يرضون علمنا ، فقال أبو جعفر : يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط ·

ولكن مالك أبى أن يسرع فى الاستجابة الى طلب أبى جعفر المنصور ، واحتاج الى أكثر من عشر سنوات ليعد الموطأ ويراجعه ، ويضيف اليه ويرفع منه ، فقد طلب منه جعفر المنصور كتابته عام ١٤٨ فلم يفرغ منه الا عام ١٥٩ هـ ·

وقد جدد هارون الرشيد محاولة فرض الموطأ على عامة المسلمين، ومرة أخرى أبى عليه مالك ذلك ·

يقول مالك : «شاورنى هارون الرشيد فى ثلاث: أن يعلق الموطأ فى الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، وفى أن ينقض منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ويجعله من جوهر وذهب وفضة ، وفى أن يقدم نافع بن أبى نعيم اماما يصلى بالناس فى مسجد رسول الله».

فقلت له يا أمير المؤمنين : أما تعليق الموطأ فى الكعبة فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع وافترقوا فى البلدان ، وكل عند نفسه مصيب • وأما نقض المنبر ، فلا أرى أن تحرم الناس أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما تقديمك نافعا يصلى بالناس ، فان نافعا امام فى القراءة ، لا يؤمن أن تبدر منه فى المحراب بادرة فتحفظ عنه ، فقال وفقك الله يا أبا عبد الله •

مالك والاستحسان والمصالح المرسلة :

ومن عجب أن الامام مالك الذى اشتهر بأنه رأس مدرسة الحديث التى تقف عند حد الحديث والنصوص لا تعدوها ، هو فى الحقيقة على رأس المجتهدين بالرأى ، وقد جعل أتباعه من بعده الفقه المالكى من أغنى المذاهب فى الاجتهاد والرأى ، وحسبك أن تعلم أنه المذهب الذى قال بقاعدة الاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع ، باعتبارها مصادر للتشريع • وتلامذة مالك لم يفعلوا ذلك الا لاقتدائهم بامامهم مالك • فقد روى عنه قوله : « الاستحسان تسعة أعشار العلم » والاستحسان بالتعريف الفقهى هو : **رفض الأخذ بالقياس ، اذا أدى القياس الى غلو فى الحكم ومبالغة فيه ، الى حكم آخر يقتضى أن يستثنى من هذا القياس •**

والامام مالك وتلامذته من بعده ومجتهدو مذهبه هم الذين اتخذوا من قاعدة المصالح المرسلة ، أصلا قائما بذاته لاستنباط الأحكام •

وقاعدة المصالح المرسلة تقوم على المبدأ المقرر من أن نصوص الشريعة لم تأت الا من أجل مصالح العباد ، فاذا كانت المصلحة مقررة بالنص صراحة فيها ونعمت ، وأما المصالح التى لا تدل عليها نصوص خاصة ، فيرجع فيها للنصوص العامة للشريعة كقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وقاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » ٠

ويستدل الشاطبى فقيه المذهب المالكى الكبير على صحة الأخذ بالمصالح المرسلة ، من مسلك الشريعة الاسلامية نفسها بازاء النظم الجاهلية فقد : أقرت جملة من الأحكام التى جرت فى الجاهلية كالدية والقسامة والقراض وأشباه ذلك ، مما كان عند أهل الجاهلية محمودا ، وما كان من محاسن العادات ، ومكارم الأخلاق التى تقبلها العقول وهى كثيرة(١) ٠

مالك يرد بعض الأحاديث :

وليس هناك ما يدل على فقه الامام مالك ، وأن الفقه يعنى فى الدرجة الأولى اعمال الرأى ، من أنه لم يتردد عن رد الحديث المنسوب الى رسول الله ، اذا خالف ظاهر القرآن ، أو القطعى من الأحكام أو الأصل العام ٠

وعلى هذا الأساس فقد رد حديث نجاسة الكلب المغلظة « اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب » ٠

وذلك تأسيسا على أن القرآن قد أباح أكل صيد الكلب فكيف يكره لعابه ٠

---

(١) انظر كتابنا « الاسلام ورسوله بلغة العصر » ٠

وكذلك لم يأخذ بحديث « من صام رمضان وأعقبه بست من شوال فكأنه صام الدهر » بل ونهى الامام مالك عن صيام ستة أيام متتابعة من شوال وذلك أخذا بمبدأ سد الذريعة ، وخوفا من أن تؤدى مداومة الصوم بعد رمضان ، الى زيادة شهر رمضان ووجوبها. بل ان مالكا ذهب الى أبعد من ذلك فقد روى هو نفسه فى كتابه الموطأ حديثا عن رسول الله ، ثم أفتى بعكس هذا الحديث استنادا الى دليل آخر .

فقد روى مالك فى الموطأ بسنده ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتطيب قبل الاحرام بالحج ، ومع ذلك فقد كان مالك ينهى عن التطيب ويعتبر ذلك مكروها وذلك استنادا الى نهى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن التطيب قبل الاحرام ، فكان مالك يرى أن سيدنا عمر أصدق فى النقل عن رسول الله من راوى الحديث(١)

وهكذا يقف الامام مالك عملاقا فى دنيا الاجتهاد واعمال الرأى، كما هو عملاق فى دنيا الحديث وحسبه أن كان البادىء بجمع أحاديث رسول الله فى الأحكام وتدوينها وترتيبها ترتيبا فقهيا .

بين عالم مصر الليث بن سعد والامام مالك :

ولقد كان لمصر نصيبها من هذا الحوار الفقهى الذى دار بين المدينة والكوفة ، فقد نما فى أرض مصر فقيه من أعظم الفقهاء الذين انتهى اليهم علم الصحابة ممن وفدوا الى مصر واستقروا بها وعلى رأسهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذلك الفقيه هو الليث بن سعد

---

(١) انظر فى الموطأ حديث عائشة : كنت أطيب رسول الله لاحرامه ـ ص ١٦٦ وقارن ذلك بما ورد فى ص ١٤٠ من نهى سيدنا عمر عن التطيب ، وأخذ مالك ومحمد بن الحسن الشيبانى بذلك .

والذى قال عنه الامام الشافعى : الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به ٠

وكان ابن وهب يقرأ عليه مسائل ، فمرت به مسألة فقال رجل من الغرباء أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب، فقال ابن وهب للرجل ، بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا اله الا هو ما رأينا أحـد قط أفقه من الليث (١) .
ومن حسن الحظ أن التاريخ قد سجل لنا رســـالتين تبودلتا بين الامام مالك ، وبين الليث بن سعد ، وهما تكشفان عن علم الليث ابن سعد الغزير وفقهه ، كما تصوران لنا كيف كان الأئمة يتصاولون في العلم ويتبادلون الحجج ويقرعون الدليل بالدليل ، مع احـترام كل منهم للآخر ٠ فهما نموذج لقضايا الرأى فى الاســـلام فى أصـفى صورها ٠

رسالة مالك الى الليث بن سعد :

من مالك بن أنس الى الليث بن سعد .

سلام عليكم ، فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو ، أما بعد عصمنا الله واياك بطاعة السر والعـلانية ، وعافانا واياكم من كل مكروه : واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه النـــاس عندنا وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت مع أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك اليك واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما نرجو النجاة باتباعه ٠ فان الله تعالى يقول فى كتابه : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » ٠٠ الآية ، وقال تعالى فبشر عبادى الذى يستمعون القول فيتبعون أحسنه (الآية) ٠

---

(١) محمد فريد وجدى ـ دائرة معارف القرن العشرين ٠

فانما الناس تبع لأهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها تنزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، واختـــار له مالا عنده ، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته ، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده ، بما نزل بهم ، فما علموا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك ، فى اجتهادهم وحداثة عهدهم ، وان خالفهـــم مخالف ، أو قـال امرؤغيره أقـــوى منه وأولى ، ترك قوله وعمل بغـيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ، ويتبعون تلك السنن ، فاذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به ، لم أر لأحد خلافه، للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز انتحالها أو ادعاؤها ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك ، جاز لهم . فانظر رحمك الله فيما كتبت اليك لنفسك، واعلم أنى أرجو ألا يكون دعانى الى ما كتبت به اليك الا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضن بك ، فانزل كتابى منزلته ، فانك أن تعلمت تعلم أنى لم آلك نصحا ، وفقنـــا الله واياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر ، وعلى كل حال والسلام عليك ورحمة الله (١) .

وقد رد الليث بن سعد على هذه الرسالة برد مطول نثبت لك أكبر قدر منه ، فهو يصـــــور لك كيف يبحث عن الأدلة ويصوغ الحجج :

---

(١) من كتاب المدارك ـ نقل محمد ابو زهره فى كتاب مالك .

رسالة الليث بن سعد ــ الى مالك :

سلام عليكم فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو .

أما بعد ، عافانا الله واياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة : قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من احسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها اليك ، واقامتك اياها ، وختمك عليها بخاتمك وقد أتتنا ، فجزاك الله عما أقدمت منها خيرا ، فانها كتب انتهت الينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت اليك فيه من تقويم ما أتانى عنك الى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وانه لم يمنعك من ذلك فيما خلا ، الا أن رأيك فينا جميل ، والا لأنى لم أذاكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أننى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وانى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ماأفتيتهم به .وأن الناس تبع لأهل المدينة التى بها كانت الهجرة،وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك، ان شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذا بفتياهم فيما اتفقوا عليه منى والحمد لله رب العالمين لاشريك له ، وأما ماذكرت من قول الله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) فان كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا الى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله . فجندوا الأجناد واجتمع اليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم

عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ٠ ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لاقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القـــرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم ، أو ائتمروا فيه بعده الا علموه ، فاذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمـــان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا ، لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليهم والتـــابعين لهم .

مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى عرفت أن قد علمتها لكتبت بها اليك . ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصـــحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن، وكان خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت ، وسمعت قولك فيه وقول ذوى الرأى من أهل المدينة ، يحى بن سعيد وعبيد الله بن عمرو كثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كـــرهت من ذلك الى فراق مجلسه ٠ وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما يغيب على ربيعة من ذلك ٠ فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكره ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير وعقل أصيل ولسان بليغ ، وفضل مستبين وطريقة حسنة فى الاسلام ، ومودة لاخوانه عامة ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله ٠ وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير اذا لقيناه ، واذا كاتبه بعضـــنا فربما كتب اليه فى الشىء الواحد ، على فضل رأيه وعلمه ، بثلاثة

أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ، فهذا الذى يدعونى الى ترك ما أنكرت تركى اياه .

وقد عرفت أيضا عيب انكارى اياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه الا الله ، لم يجمع منهم امام قط فى ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » وقال « يأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برتوه (أى خطوة) وشرجبيل بن حسنه وأبو الدرداء وبلال بن رباح . وكان أبو ذر بمصر والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها وبالعراق ابن مسعود وحذيفة ابن اليمان وعمران بن حصين ، ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه فى الجنة ، سنين وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط .

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به اليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم ولى عمر بن عبد العزيز ، وكان كما قد علمت فى احياء السنن والجد فى اقامة الدين والاصابة فى الرأى والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب اليه رزيق بن الحكم : انك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب اليه عمر بن عبدالعزيز انا كنا نقضى بذلك فى المدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا يقضى الا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين ، ولم

يجمع بين العشاء والمغرب قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا .

ثم راح الليث بن سعد يناقش بقية القضـــايا التى وقع عليها الخلاف بينه وبين مالك ، ثم يقول فى النهاية :

« ومن ذلك أنك تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام الا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه اعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلها على هذا الحديث ، أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقيا لا يختلف فيه اثنان ـ فما كان ينبغى لك ـ وان كنت سمعته من رجل مرضى ـ أن تخالف الأمة أجمعين .

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله اياك وطول بقائك ، لـما أرجو للنـاس فى ذلك من المنفعـة ، وما أخاف من الضيعة الا أن أذهب مثلك مع استئناسى بمكانك ، وان نأت الدار ، فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب الى بخبرك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة ان كانت لك أو لأحد يوصل بك ، فانى أسر بذلك .

كتبت اليك ونحن صـالحون معافون والحمد لله نسـأل الله أن يرزقنا واياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا » .

والسلام عليكم ورحمة الله(١) .

الشافعى الامام الذى جمع بين المدرستين :

واذا كانت المدارس المختلفة للفقه قد تأثر بعضها بالبعض الآخر نتيجة التفاعل والأخذ والرد ، فقد انتهى ذلك الى ابراز فقيه اعتبره

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ـ الجزء الثالث ـ ص ٩٤ .

البعض مجدد الاسلام فى المائة الثانية ، وذلكم هو الامام محمد بن ادريس الشافعى العربى القرشى من ناحية الأب المولود فى مدينة غزة أو عسقلان عام ١٥٠ هـ والذى كان مقدرا له أن يأخذ أحسن ما فى المدرستين وأن يكون هو واضع أصول الفقه ٠

يقول لنا الشافعى عن نفسه : كنت يتيما فى حجر أمى ولم يكن لها مال ، وكان المعلم يرضى من أمى أن أخلفه اذا قام ، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكانت دارنا فى شعب الخيف (بمكة) فكنت أكتب فى العظم ، فاذا أكثر طرحته فى جرة عظيمة ٠

ثم يقول : وخرجت من مكة فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب ٠ « وأصبح بمخالطته لهذيل ، من أفصح العرب ، وأكثرهم علما بالشعر واللغة ٠

ثم حفظ الشافعى كتاب الموطأ وهو لا يزال فى مكة ، ثم انتقل الى المدينة ، وتلقى الموطأ عن مالك كما أخذ عنه فقهه ولازمه حتى مات مالك عام ١٧٩ هـ ، ثم ولى بعض الأعمال فى اليمن ،واستدعى منها الى بغداد لمواجهة الرشيد ليدفع عن نفسه اتهاما وجه اليه ، وفى أثناء اقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب أبىحنيفة فأخذ عنه فقه العراقيين بعد أن أخذ فقه المدينة ٠ يقول ابن حجر : انتهت رياسة الفقه بالمدينة الى مالك بن أنس فرحل اليه الشافعى ولازمه وأخذ عنه ، وانتهت رياسة الفقه بالعراق الى أبى حنيفة ، فأخذ الشافعى عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شىء الا وقد سمعه عليه ، فاجتمع له علم أهل الرأى ، وعلم الحديث ، فتصرف فى ذلك حتى أصل الأصول ، وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره وعلا ذكره ، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار ٠

وضع علم أصول الفقه :

وهذا الذى صار من الشافعى ، انه أصبح مؤسس علم أصول الفقه الذى اليه ينسب ، كما ينسب علم المنطق الى أرسطو ، وعلم العروض الى الخليل ٠

فالى ما قبل الشافعى ، لم تكن هناك أصول عامة وقواعد كلية يعتمد عليها ، وكل ما كان هناك هو كثرة المسائل الفقهية وتفريعاتها ، وتكلم الناس فى مسائل أصول الفقه استدلالا واعتراضا بوجه غامض ٠

فلما كان الشافعى وكانت تلمذته على مالك ، أعطى للحديث مكانته الأولى فى الفقه ، وألح الحاحا شديدا فى الاستدلال بالحديث . فلما أن تلقى عن مدرسة العراق ، رضى عن القياس باعتباره منهجا صحيحا ، ولكنه لم يأخذه على اطلاقه ، فهو عنده يجب أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحةحتى ما كان منها خبر أحاد، وأخذ عن العراقيين طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها ، والحاق الشبيه بالشبيه وتمييز ما بين الأشياء من فروق وموافقات ، ثم صاغ كل ذلك علما على قواعد أصيلة مقننة ومقررة.

شروط القياس :

فلا بأس بالقياس ، ولكن ليس لأحد أن يقيس الا اذا توفرت لديه آلة القياس يقول الشافعى :

جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار ثم القياس عليها، ولا يقيس الا من جمع الآلة التى له القياس بها ، وهى العلم بأحكام كتاب الله عز وجل ، فرضه وأدبه ، ناسخه ومنسوخه ، عامه ، وخاصه ، ولا يجوز لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله

من السنن وأقوال السلف ، واجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يعجل القول دون التثبت ، ولا يمتنع عن الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد ينبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبيتا فيما اعتقد من صواب ، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك (١) .

منهاج الشافعي :

وقد لخص الشافعي منهاجه في اجتهاده بالعبارات التالية :

الأصل قرآن وسنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، واذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهره أولاها به . واذا تكافئت الأحاديث فأصحها اسنادا أولاها ، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب ،ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لم وكيف ، وانما يقال للفرع لم ، فاذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة .

وعلى هذا الأساس ، وضع الامام الشافعي علم الأصول ، وراح يطبقه على ما عند المدرستين ، فوجد عند كل منهما ما يخالف منهاجه وقواعده التي تعدها ، فلم يتردد في الهجوم على كلتا المدرستين . واختص الاستحسان الذي كان مالك يعتبره تسعة أعشار العلم ، بأكبر نصيب من هجومه ، وأفرد له بابا خاصا في كتاب الأم جعل عنوانه « ابطال الاستحسان » وكان مما جاء في هذا الباب قوله :

---

(١) الرسالة للشافعي ـ نقلا عن ضحى الاسلام .

« ولا يجوز لمن استأهل أن يكون حاكما أو مفتيا أن يحكم أو أن يفتى الا من جهة خبر لازم ، وذلك من الكتاب والسنة ، أو ما قاله أهل العلم لا يختلفون فيه ، أو قياس على بعض هذا ولا يفتى بالاستحسان . ذلك أن الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يقاس بهاالحق من الباطل ، فلو جاز لكل مفت أوحاكم أو مجتهد أن يستحسن فيما لا نص فيه ، لكان الأمر فرطا ، ولاختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت ، فتقال في الشيء ضروب من الفتيا والأحكام ، وما هكذا تفهم الشرائع وتفسر الأحكام الدينية (١).

الشافعى ومصر :

وكانت مصر مهبط الامام الشافعى ، اليها انتهى تجواله ، وفيها تكامل مذهبه الذى انفرد به ، وألف كتاب « الأم »وهو الكتاب الجامع للأصول ، أو بالأحرى منشىء علم الأصول ، وفى مصر مات الشافعى سنة ٢٠٤ ويثوى جثمانه بها فى مقبرته الشهيرة ، ويسود مذهبه بين أهلها .

أحمد بن حنبل :

واذا كانت مذاهب الفقه قد تلاقت فى الامام الشافعى ، فقد كان لابد لها من بعده أن تنقسم من جديد وتصبح أشد تطرفا ، لتبدأ دورة جديدة كما هو الشأن دائما فى دورة الأفكار.

فقد جاء ابن حنبل الذى (ولد عام ١٦٤ هـ ببغداد) ودرس على الشافعى من عام ١٩٥ ــ ١٩٧ وأخذ جانب تمسك الشافعى

(١) كتابنا « الاسلام ورسوله » .

بالأحاديث ، وبالغ فيه حتى جعل من العمل بالأحاديث مذهبا ، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الى غيره ، بل اذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها ، واذا وجد لهم فتاوى مختلفة تخير أقربها الى الكتاب والسنة ، واذا وجد حديثا مرسلا أو ضعيفا رجحه على القياس ، ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى . ويكره الفتوى فى مسألة ليس فيها أثر

ولم يترك وراءه كتابا فى الفقه ، ولكنه ألف مسندا ضخما فى الأحاديث . ومن هنا فقط ذكره أبو جرير الطبرى فى عداد المحدثين وليس فى عداد أصحاب المذاهب ، ولكن أحمد بن حنبل لم يلبث أن ذاعت شهرته بين المسلمين عندما امتحن فى محنة خلق القرآن ، وصمد لهذه المحنة ، فارتفع شأنه وأصبح اماما على المذهب المنسوب اليه . وهو ما سوف نفرد له فصلا خاصا فى هذا الكتاب .

مذاهب متعددة :

والى جوار هذه المذاهب الأربعة الشهيرة التى تلخصت فيها المذاهب فى عصرنا الحديث ، نشأ فى القرن الثانى عديد من المذاهب ، كمذهب الأوزاعى فى الشام وقد توفى عام ١٥٧ هـ وسفيان الثورى الذى مات مستترا سنة ١٦١ هـ .

مذهب داود الظاهرى :

ومن هذه المذاهب المندرسة ، مذهب داود بن على الأصبهانى الذى ولد بالكوفة سنة ٢٠٠ ونشأ ببغداد ومات بها عام ٢٧٠ هـ .

وقد بدأ كأحمد بن حنبل شافعيا متحمسا ، ثم بالغ وتطرف، بحيث أصبح على نقيض المذهب الحنفى اذ أنكر القياس من

أساســـه ، ففى رأيه أن فى القرآن والحديث وعمومياتهما مايكفى لبيان الأحكام ، ويتمسك بظاهر الكتاب والسنن ، ومن هنا اشتق اسم الظاهرية . ويرى داود أن القياس تشريع عقلى ، والدين الهى، ولو كان الدين بالعقل لجرت أحكامه على خلاف ما أتى به الكتاب فوجب أن نتقيد بهما (أى بالكتاب والسنـــة) بل بظاهرهمـا ولا يبيح القياس الا اذا ورد نص بتحريم أو تحليل ، وبين فيـه علته ، فحينئذ يجوز أن نشرك فى الحكم الأشياء التى لم ينص عليها ولكنها تتخذ فى العلة ، فليس للمجتهد أن يستنبط العلة ثم يقول بها ويقيس عليها . قال الله تعالى :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله » (الشورى ١٠) ولم يقل الرأى والقياس . يقول ابن خلدون المتوفى سـنة ٨٠٨ هـ فى مقدمته الخالدة :

« وقد اندرس مذهب أهل الظاهر بدروس أئمته وانكــار الجمهور على منتحليه ، ولم يبق الا فى الكتب المجلدة ، وربمـا عكف عليها كثير من الطالبين الذين تكلفــوا انتحـال هذا المذهب ليأخذوا منه مذهبهم فلا يظفرون بطائل ، ولا ينالون الا مخالفـة الجمهور ، وانكارهم عليهم ، وربما عدوا مبتدعين بنقلهم العلـم من الكتب بغير مفتاح المعلمين » .

ابن حــزم الأندلسى :

وقد حاول ابن حزم الأندلسى ، الذى عاش فى القرنين الرابع والخامس (٣٨٤ ــ ٤٥٦ هـ) أن يبشر بالمـذهب الظـاهرى فى الأندلس ، وألف كتابا أسماه « الأحكام فى أصول الأحكام » أنكر فيه القياس واشتد فى نقد فقهاء القياس نقدا مرا ، فلم يقدر

لمذهبه النجاح ، وان كان قد خلف لنا كتابا ضم أكبر مجموعة من الآثار الفقهية وهو كتاب « المحلى » .

ويقول ابن خلدون فى تعليقه على جهود ابن حزم فى رفع لواء الفقه الظاهرى :

« وقد صار ابن حزم بالأندلس على علو مرتبته فى حفظ الحديث ، الى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه ، وخالف امامهم داود وتعرض للكثيرين من أئمة المسلمين فنقم الناس عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وانكارا ، وتلقوا كتبه بالاغفال والترك حتى انه ليحظر بيعها بالأسواق ، وربما تمزق فى بعض الأحيان ، ولم يبق الا مذهب أهل الرأى من العراق وأهل الحديث من الحجاز » ..

حرية لا مثيل لها :

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين قد تمتعوا بحرية فكرية فى الاجتهاد وتخريج النصوص ، لا نظن أن أحدا تمتع بمثلها فى أى مجتمع انسانى آخر ، فقد تشعبوا كما رأينا ، وكل كان يفتى فتواه طبقا لاجتهاده ، دون تدخل من السلطات أو توجيه ، ليس عليهم حرج فى أن يشرقوا أو يغربوا ، يوسعوا أو يضيقوا ، يتعاركوا أو يتصالحوا ، ولم تلتزم الحكومة بقانون معين فرضته على الدولة كلها ، ولم تؤثر مذهبا على مذهب ، بل لقد اختارت القضاة من مختلف المذاهب ، وتركت لهم الحرية فى الأحكام حسب اجتهادهم حتى لقد وصل الأمر الى حد تضارب الأحكام، مما جعل ابن المقفع يندد بهذا اللون من الفوضى ويطلب من جعفر المنصور أمير المؤمنين أن يستن نظاما للقضاء أشبه بما تقوم به

محكمة النقض في عصرنا الحديث ، حيث تسعى لتوحيد النظر في الأمور القضائية ، واليك نص عبارة ابن المقفع :

« لا يرجع في القضاء الى قانون معروف ، وانما هو متروك لرأى القضاة واجتهاداتهم ، ونشأ من ذلك صدور الأحكام المتناقضة حتى في البلدة الواحدة فتستحل دماء وأعراض وأموال في ناحية من نواحي الكوفة ، وتحرم في ناحية أخرى ــ تبعا لحكم القاضي ــ وكل ذلك نافذا على المسلمين . والقضاة نوعان : نوع يزعم أنه يلتزم السنة ، وقد تغالى فيما سماه سنة ، فكثيرا ما يسفك دما من غير بينة ولا حجة ويزعم أنه السنة ، فاذا قيل له : ان مثل هذا الأمر لم يرق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أئمة الهدى من بعده قال فعل ذلك عبد الملك ابن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء ، ونوع يزعم أنه من أهل الرأى ، فيبلغ به الاعتداد برأيه ! أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا لا يوافقه عليه أحد ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب أو سنة » .

واعتبر ابن المقفع ذلك لونا من ألوان الفوضى ، ثم اقترح لها علاجا ، وهو أن يرفع الى أمير المؤمنين كل الأقضية والمسائل التى يحدث فيها الخلاف ، ويذكر كل فريق ما يحتج به من نص أو رأى ، فيعمد أمير المؤمنين الى هذه الحجج والبراهين ويختار ما يراه صوابا ، ثم يدون ذلك في كتاب ، وتعمل منه نسخة ترسل الى الأمصار ، ويلزم القضاة بالحكم به ، فاذا جدت حوادث سير فيها هذا السير ، ووجب على كل امام يأتي بعد أن يدخل على هذا القانون ما يجد وتدعو اليه الحاجة وهكذا الى آخر الدهر (١).

(١) ضحى الاسلام الجزء الأول ــ احمد امين .

ولعل تكليف أبى جعفر المنصور للامام مالك أن يكتب الموطأ ليفرضه على الأمصار ، وما طالب به من بعده هارون الرشيد ، كان استجابة لهذه الصيحة الرائعة من ابن المقفع التى سبق بها بألف عام نظام محاكم النقض . ولكن نعلم أن الأمر لم يتم على هذا الوجه وظلت الحرية الكاملة المطلقة ، لكل قاض ، ولكل مفت أن يقضى بما يطمئن اليه ضميره مما أداه اليه اجتهاده (١) .

---

(١) اختلاف الأحكام فى القضايا ظاهرة شائعة فى كل عصر وزمان ومكان حتى مع وحدة القانون ، وذلك لاختلاف وجهات نظر القضاة واختلاف منهج كل قاض وأسلوبه • ومحاكم النقض نفسها التى أنشئت لتوحيد الأحكام ، كثيرا ما تتغير أحكامها تبعا لتغير رؤسائها ، أو تغير الظروف •

الفصل الخامس

قضايا أهل الكلام

فرق المرجئة ، والجبرية ، والمعتزلة

اذا كانت الخلافات ومعارك الرأى كما شرحناها فى الفصل السابق تمثل خصوبة الفكر الاسلامى البحت ، واستناده الى مصادره الرئيسية من قرآن وسنة وعمل الصحابة والتابعين والقياس على كل ذلك ، فان التفكير الاسلامى لم يلبث أن اتخذ مسارا آخر ، بعد أن ترجمت كتب الفلسفة اليونانية وخاصة كتب أرسطو فى المنطق ، فتلقفت هذه الكتب عقول غير عربية ، ممن أصبح يطلق عليهم اسم الموالى وهم المسلمون من أصول غير عربية . وقد نهجت الدولة الأموية على التضييق على غير العرب من المسلمين ، فأبعدتهم عن مراكز القيادة فى الدولة ، واستغل بنو العباس هذه السياسة التى تقوم على العصبية العربية ،وجمعوا الخرسانيين تحت لوائهم ، فلما انتصر العباسيون بسواعد الفرس ، علت كلمة الموالى ، وتقلدوا الزعامات والقيادات السياسية والعسكرية ، ولم يلبث أن امتد ذلك ، الى القيادات الفكرية والعقائدية ، بحيث يمكن القول بأن القرن الثالث الهجرى لم ينصرم الا وجل أعلام المجتمع الاسلامى فى شتى ميادين العلم والفكر والأدب واللغة والدين ، فضلا عن السياسة والعسكرية من غير العرب .

ـ مزج العقائد غير الاسلامية بالاسلام :

ولقد رأينا فى الفصل السابق كيف اتخذ أبناء فارس من التشيع لسيدنا على بن أبى طالب حزبا سياسيا ، للوصول الى السلطان الذى نزع منهم ، وكيف نفذت العقائد الفارسية والهندوكية الى أكثر مذاهب الشيعة ، ولكن تأثير هذه المعتقدات

لم يقف عند حد المذاهب الشيعية بل تعداها الى مذهب الجماعة الموالين للدولة ممن كانوا يعدون أهل سنة ..

ولما أن نقلت الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية ، وجدت هذه المعتقدات غير الاسلاميةالاطار الذى تعمل داخله ، من الاستناد الى المنطق الأرسطى ، والفلسفة اليونانية .

ووسط هذا الجو الملبد بالأفكار والعقائد المتضاربة ، ازدهر الالحاد والكفر بالله ، وانكار أصول الدين ومبادئه الأساسية ، مما أطلق عليه فى ذلك الوقت اسم الزندقة والذين اتخذوا من الفلسفة اليونانية سبيلا لهذا الانكار ، فأصبح لزاما على من يتصدى لهم أن يحيط بالفلسفة اليونانية ليصارعهم ، وقد كان من شأن التسامح الدينى الذى هو أحد خصائص الاسلام ، أن ازدهرت الطائفية بين صفوف اليهود والنصارى ، وارتفع من بين صفوفهم من يدافع عن اليهودية والنصرانية ، مستندا الى نصوص من القرآن ، فأصبح لزاما على من يتصدى للرد عليهم أن يكون دارسا للانجيل والتوراة .

واذا كان الخوارج والشيعة قد غلبوا على أمرهم عسكريا ، فقد رأوا أن يستولوا على القلعة من الداخل ، بأن يتظاهروا بأنهم على مذهب الجماعة ، ثم يبثوا عقائدهم وأفكارهم ، وفعل مثل ذلك المخربون من اليهود وغيرهم ، وهكذا التهبت الأفكار الاسلامية بمعارك دخيلة على الدين الاسلامى الذى يمتازبالبساطة والوضوح وأنه دين عملى يساير الواقع ويلبى حاجات الاجتماع والعمران .

فتعددت الفرق والنحل ، واشتبكت مع بعضها فى صراع فكرى عقائدى ، اختلط فيه الحابل بالنابل والصالح بالطالح . وليس هناك ما يكشف عن عظمة الدين الاسلامى من أنه استطاع أن يصمد لكل هذه التيارات التى حاولت أن تحرفه عن طريقه ،

وأن تخرجه عن صفائه ، وحافظت القاعدة الجماهيرية للمسلمين على نقائه ، بحيث جاء من العلماء والقادة من جددوا للاسلام شبابه ، وبعثوا أصوله الصافية النقية كما يمثلها القرآن ، واعتنقها السلف .

ولنفصل لك الأمر بذكر بعض هذه الفرق التي دارت بينها معارك الرأى والذين استخدموا لأول مرة ما أسموه علم الكلام ليكون أساسا للجدل والمناقشة والمناظرة .

علم الكلام :

علم الكلام هو علم بحث العقائد والرد على الزندقة والالحاد والانحراف بالدليل العقلى والحجة المنطقية والآية القرآنية .

وقد سمي المشتغلون به بالمتكلمين ، وقد اختلفوا في سبب هذه التسمية فقال بعضهم انه سمى علم الكلام لأن اهم مسألة وقع فيها الخلاف فى العصور الأولى مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسمى العلم كله بأهم مسألة فيه . وقيل بل سمى بالكلام لأنه يقوم على مناظرات قولية وليس يرجع الى عمل ، وقيل بل هو كلام اذ تكلموا فيه بما سكت السلف عن الكلام فيه (١) .

ولقد وقع الخلاف حول علم الكلام ومشروعيته ، فنقم عليه علماء الفقه وأهل السنة والمتصوفة واعتبروه خروجا على الاسلام وزندقة وكفرا ، فالقاضى أبو يوسف اعتبر المعتزلة وهم ائمة علم الكلام زنادقة ، والامام مالك لا يقبل الشهادة من معتزلى ، ومحمد بن الحسن الشيباني يطلب الى من صلى خلف معتزلى ان يعيد الصلاة . بينما رأى المعتزلة ان الايمان لا يتم الا بالدليل العقلى

---

(١) ضحى الاسلام جزء ٣ ــ أحمد أمين .

ولقد سبق المتكلمون فلاسفة الاسلام فى الزمان وهم يختلفون مع الفلاسفة فى أن المتكلمين اعتقدوا قواعد الايمان واقروا بصحتها وآمنوا بها ، ثم اتخذوا ادلتهم العقلية للبرهنة عليها ، فهم يبرهنون عليها عقليا كما يبرهن القرآن عليها وجدانيا ، فموقفهم موقف المحامى عن الاسلام .

اما الفلاسفة الاسلاميون ، فهم يبحثون المسائل بحثا مجردا ، ويفرضون أن عقولهم خالية من أى مؤثرات ومعتقدات ، ثم يبدأون النظر ، منتظرين ما يؤدى اليه البرهان . فموقفهم موقف القاضى، وهم ينتهون من بحثهم المجرد بالحكم لصالح المبادىء والمعتقدات الاسلامية .

ولنجتزىء الآن بذكر ثلاث فرق من الفرق التى دارت قضايا الرأى الحامية بينها وبين أفكار الفرق السابقة الاشارة اليها من خوارج وشيعة وأصحاب المذاهب الأربعةالحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية . أما هذه الفرق الثلاث فهم المرجئة ، والجبرية ، ثم المعتزلة راس علماء الكلام واشهر الفرق التى رفعت لواء العقل فى التفكير الاسلامى .

المرجئة :

رأينا الخوارج يمثلون منتهى التطرف فى العداء لكل من لايقول بقولهم حتى ليكفرون مرتكب الكبيرة ، فأدى هذا التطرف الى تطرف فى الناحية المقابلة ، فقام أقوام ، يقولون بأن مرتكبالكبيرة ليس كافرا ، ولا هو مخلد فى النار ، بل قد لا يدخل النار أصلا ويشمله عفو الله ، ويجب ترك الحكم عليه وارجاؤه الى الله ، ومن هنا جاءت هذه التسمية تسمية المُرجئة .

ويرى البعض بذرة الارجاء فى نفر من الصحابة الذين وقفوا على الحياد فى الفتنة التى استطارت فى أخريات ايام سيدنا عثمان ، ثم استغرقت سنوات عهد الامام على بن أبى طالب وحربه مع معاوية . وكان بعض هؤلاء الصحابة غائبين عن المدينة فى الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فلما عادوا وجدوا الأمور وكيف صارت الى الفرقة والخلاف فقالوا لبقية أصحابهم : تركناكم وأمركم واحد وليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وانتم مختلفون فبعضكم يقول : قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ،وبعضكم يقول : كان على أولى بالحق وأصحابه كلهم ثقة (الطرفان) عندنا مصدقان فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ، نرجىء أمرهما الى الله حتى يكون هو الذى يحكم بينهما (١) .

المرجئة يردون على الخوارج :

وعندما قال الخوارج قولتهم ان مرتكب الكبيرة من الذنوب كافر ، قال المرجئة : ليس لنا أن نحكم على مرتكب الكبيرة فى هذه الدنيا فأمره الى الله يفصل فيه يوم القيامة فاما الى الجنة واما الى النار .

وقد حفظ لنا صاحب الأغانى قصيدة لثابت بن قطنه أحد فرسان يزيد بن المهلب ، وهى قصيدة فى الارجاء تلخص لنا المرحلة الأولى من مراحل المرجئة حيث كانوا يتوقفون عن القول فى على وعثمان ، كما يتوقفون بعامة عن الحكم على مرتكب الكبيرة ويفوضون امره الى الله .

---

(١) ابن عساكر ـ نقل محمد ابو زهره فى كتاب « ابى حنيفه » .

وكان يحضر اجتماعات للخوارج والمرجئة بخراسان يتجادلون فيها ويتناظرون ، فمال الى قول المرجئة وأحبه ، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدة قالها فى الارجاء واليك بعضا منها :

يا هند فاستمعى لى ان سيرتنا
ان نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور اذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهمو
والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغا أحدا
م الناس اذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا
سفك الدماء طريقا واحدا أحدا
من يتق الله فى الدنيا فان له
أجر التقى اذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له
رد وما يقضى من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخط فى مقالته
ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فانهما
عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
يجزى على وعثمان بسعيهما
ولست أدرى بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به
وكل عبد سيلقى الله منفردا (١)

---

(١) الأغانى ــ الجزء الرابع عشر .

المرجئة يقعدون القواعد :

انتقل المرجئة من هذا القول العام الذى لايمكن أن يعترض عليه معترض ، وأبو الا يدلوا بدلوهم فى قضايا الكلام ، فراحوايقعدون القواعد ، ويؤصلون المبادىء التى تحول الارجاء الى عقيدة ذاتأصول وتفريعات .

فالايمان عندهم تصديق بالقلب واللسان ، وغالى البعضفقالوا انما هو تصديق بالقلب فقط وان أعلن الكفر بلسانه بلا تقية .

ولكن غير المبالغين من المرجئة يقولون بالقول الأول من أنالايمان تصديق بالقلب واقرار باللسان مخالفين بذلك من يقول بالعنصر الثالث من عناصر الايمان وهو العمل بالطاعات ، فالطاعات عندهم منفصلة عن الايمان ، واستدلوا على ذلك ببعض آيات القرآنالتى يفهم منها أن الايمان لايعنى شيئا أكثر من التصديق :

كقول أخوة يوسف لأبيهم « وما أنت بمؤمن لنا ، أى ما أنت بمصدق لنـــا .

وفى الحديث الشريف : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » أى تصــدق .

وبناء على هذا الأصل من أصول المرجئة فان مرتكب الكبيرة لايجوز تكفيره وهو لن يخلد فى النار ، وليس ثمة مانع من ان يعفو عنه الله مهما كانت ذنوبه .

واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة :

« ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ،، ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٣)

ويقول أبو الحسن الأشعرى أن الامام أبا حنيفة نفسه من المرجئة بهذا المعنى ، واستشهد بفقرات من كتاب الفقة الأكبرالمنسوب للامام أبى حنيفة ، حيث يقول الامام أبو حنيفة فيه : الايمان هو الاقرار والتصـــديق .

وجاء فى الكتاب المذكور : « ويستوى المؤمنون كلهم فى المعرفة واليقين والتوكل والمحبة والرضـــا والخوف والرجاء ويتفانون فيما دون الايمان فى ذلك كله » . وجاء فيه : « والله متفضل على عباده، عادل قد يعطى من الثواب أضعاف ما يستوجبه العبد تفضلا منه، وقد يعاقب على الذنب عدلا منه ، وقد يعفو فضلا منه » .

وأخيرا جاء فى هذا الكتاب : ولا نكفر أحدا بذنب ، ولا ننفى عن أحد الأيمان .

وحكى الشهرستانى فى الملل والنحـــل عن بعض المرجئة أنهم كانوا يعدون أبا حنيفة منهم .

والى هنا لانرى نحن مايعيب المرجئة وما يؤخذ عليهم وماجعلهم هدف الحملات المنكرة ، حتى أصبحت كلمة المرجئة سبا وقذفا اذا وجهت الى أى مسلم .

ولكن الذى شوه سمعة المرجئة الى هذا الحد هو اتخاذ الفساق والمنحلين مبدأ الارجاء للتستر خلفه والانغماس فى الشهوات والمعاصى وارتكاب ابشع الجرائم ، ثم القول بأن الله غفور رحيم ، وأنه لاتضر معصية مع ايمان .

وليس هناك مايصور هذه الظاهرة مثل أبى نواس ، فهـو بعد أن ملأ حياته بالآثام ، راح يقول :

يـــارب ان عظمت ذنـــوبى كثــــــرة
فلقـــــد علمت بأن عفــــــوك أعظم

ان كان لا يرجــــوك الا محســـن
فبمــن يلوذ ويســـــتجير المجـــرم

ادعــوك رب كمــا أمــرت تضــرعا
فاذا رددت يــدى فمــن ذا يرحــم

مالى اليــك وســـــيلة الا الرجـــــا
وجميــل عفــوك ثم انى مســــــلم

ويقول مستهزئا بالنظام المعتزلى ومذهب الاعتزال ومبادئه التى تقول ان مرتكب الكبيرة مخلد فى النار مما سنعرض له :

قل لمن يدعى فى العـــلم فلســـفة
حفظت شــيئا وغابت عنك أشــياء

لا تحظر العفــو ان كنت امرأ حــرجا
فان حظــركه فى الدين أرزاء (١)

---

(١) ضحى الاسلام ـ الجزء الثالث ـ وليس من منهاج هذا الكتاب مناقشة هــذه المذاهب والاكتفاء بعرضها ، ومع ذلك فليس باستطاعتنا السكوت عن هذا القول بترك أثره فى النفوس ، المستعدة لقبوله فى كل زمان ومكان لأنه يرفع عنها التكاليف ويطلق لشهواتها وغرائزها العنان .

ليس يكفى أن يقول انسان أنه يؤمن بقلبه وينطلق بلسانه لكى يكون مؤمنا ، فان للايمان علامات أولها طاعة الله الذى آمنا به ، ومن هنا فاذا لم نطع الله فلا ايمان به .

ولا شك أن الله غفور رحيم ، وأن رحمته وسعت كل شيء وهو يعفو عن كثير ، ولكن لا يصح للانسان أن يتعلق بذلك ، الا بعد أن يبذل جهده ما اســـتطاع فى الطاعات وعمل الصالحات ، فاذا غلب على أمره وزلت به القدم ، وتعثر فى بعض الاخطاء ، فيجب أن لا يستبد به اليأس فالله غفور رحيم . أما أن يتعمد العصيان ، ويقدم على اجتراح السيئات ، ويستغرق فى الفسق رجاء ان الله غفور رحيم ، فهنا ويصبح فى المسألة نظر . ففيم كان ارسال الرسل ، وفيم كان النهى والأمر وفيم كان التعليم وكانت التربية .

الجـــبرية :

وثمة فرقة أخرى نزلت الى معمعة الجدل فى العقائد ،وتصدت بأقوالها وحججها للفرق الأخرى ، وتلك هى فرقة الجبرية الذين يقولون بالجبر وان الانسان غير حر فيما يأتيه من اعمال ، بل هو مجبر على أدائها ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل الحقيقى لكل شىء تأسيسا على الآية الكريمة « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل » . (الزمر ٦٢) .

ولقد عرضنا لهـــذا البحث فى الجبر والاختيار فى كتـــابنا « الطاقة الانسانية » فليرجع اليه من أراد التوســـع فى هـــذا الموضوع .

وحديث القضاء والقدر ، من الأحاديث التى خاض فيهاالانسان مذ كان انسانا ، ومذ عبد الله باعتباره خالق الكائنات .. وهـــو بحث وخلاف حاد يصادفنا فى ظل اليهودية والمسيحية واى دين من الأديان ، وقد تكلم فيه الصحابة زمن النبى وبعد وفاته ، ولكنهم أمسكوا عن التعمق فى القضية ، ووقفوا عند حد نصوص القــرآن التى تثبت للانسان حرية وقدرا من الارادة ، وفى ذات الوقتتقرر أن كل شىء يتم بعلم الله وقضائه . واهتموا بالأعمال من طـــاعات وعبادات وجهاد فأقبلوا عليها .

عمر بن الخطاب ورأيه فى القضـــية :

ولقد سجل لنا التاريخ موقفا خالدا لسيدنا عمر كبقية مواقفه فى هذه القضية ، فقد ذهب بقصد تفقد أحوال القطر الشامى ، وبينما هو فى الطريق ، بلغه انتشار الطاعون فى الشـــام وهـــو

الطاعون الذى اشتهر باسم طاعون عمواس ، فرأى عمر أن يعـود بالناس ولا يعرضهم لبلاء الطاعون ، فاعترض عليه البعض أن ذلك يعتبر فرارا من قضاء الله .. ولندع القصة لابن جرير الطبـرى يرويها لنـا بنصها :

« خرج عمر غازيا وخرج معه المهاجرون والأنصار وأوعب الناس معه ، حتى اذا نزل بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنه فأخبروه أن الأراضى سقيمة ، فقال عمر لابن عباس راوى الحديث :

اجمع لى المهاجرين الأولين قال فجمعهم فاستشـارهم فاختلفوا عليه ، فمنهم القـائل :

خرجت لوجه تريد فيه الله ، وما عنده ولا نرى أن يصـدك عنه بلاء عرض لك ، ومنهم القـائل انه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه ، فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ، ثم قال اجمع لى مهاجرة الأنصار فجمعهم فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله ، واختلفوا كاختلافهم فقال قوموا عنى . ثم قال لى اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعتهم فاستشـارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر بن عباس : اصرخ فى الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم انى مصبح على ظهر (١) ، فأصبحوا عليه . قال فأصبح عمر على ظهر وأصبح الناس عليه فلما اجتمعوا عليه قال : أيها الناس انى راجـع فارجعوا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرار من قدر الله ؟ قال نعم فرار من قدر الله الى قدر الله ، أرايت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ، ثم قال لو

---

(١) أى راكب ومتهيىء للسفر فى الصباح .

غيرك قالها يا أبا عبيدة ، ثم خلا به بناحية دون الناس ، فبيناالناس على ذلك ، اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفا عن النـاس لم يشهدهم بالأمس ، فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر ، فقـال عندى من هذا علم ، فقال عمر أنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء فى بلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه . فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس ، فانصرف بهم (١) .

سيدنا على وموضوع القـــدر

ولقد دارت بين سيدنا على بن أبى طالب وبين أحد شـــيوخ العراق من انصاره مناقشة فى هذا الموضوع عقب انصرافه من موقعه صفين واليك ما دار فيها من حوار :

الشـــيخ : اخبرنا عن مســيرنا الى الشام أكان بقضـــاء الله وقدره .

سيدنا على : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره .

الشـــيخ : فعند الله أحتسب عنـــائى ما أرى لى من الأجـــر شـــيئا .

سيدنا على : أيها الشيخ لقد عظم الله أجـــركم فى سيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا مضطرين .

---

(١) تاريخ الطبرى ــ الجزء الثالث .

الشـــــيخ : كيف ذلك ، والقضاء والقدر ساقانا .

سيدنا على : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ،والوعد والوعيد، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمـة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن . ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن . تلكمقالة عباد الأوثان ، وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب ، وهى قدرية هــــذه الأمة ومجوسها . ان الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف تيسيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع كارها، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثــا ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينها باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

الشـــــيخ : فما القضـــاء والقـــدر اللذان ما سرنا الا بهمـــا اذن ؟

سيدنا على : هو الأمر من الله والحكم . وتلا قوله تعالى : وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه .

فنهض الشيخ مسرورا وهو يقول :

أنت الامام الـذى نرجـو بطـاعته
يوم النشــور من الرحمن رضــوانا

أوضحت من ديننـــا ما كان ملتبسا
جــزاك ربك عنــا فيه احســـانا(١)

---

(١) شرح نهج البلاغة لأبى الحديد (نقل محمد أبو زهره فى كتاب مالك) .

ويسجل لنا التاريخ رسالتين احداهما من عبد الله بن عبـــاس الى أهل الشام يندد بالقائلين منهم بالجبر . والثانية من الحســـن البصرى الى قوم من أهل البصرة .

الجبر ومعارك الكلام :

فأنت ترى أن البحث فى موضوع القضاء والقدر قديم ، لم ينقطع ولا يمكن أن ينقطع ، ولكن الايمان البســـيط الصـــــادق سرعان ما يقف مسلما الأمر لله ، ويمضى لعمله وجهاده وكفاحه فى الحياة .

حتى اذا كان العصر العباسى ، عصر احتدام معارك الرأى وازدهار علم الكلام أبى القائلون بالجبر الا أن تكون لهم فرقة تصاول الفــرق الأخرى وتحاجهم . وكان أول ناطق بجبرية الانسان كمذهب وعقيدة هو الجعد بن درهم تلقاه عن يهودى بالشام ونشره بين الناس بالبصرة ثم تلقاه عنه الجهم بن صفوان . واليه تنسب الفرقة القائلة بالجبر فيقال لهم الجهمية . وقد وجد الجهم أرضا صـــــالحة لدعوته فى خراسان ، حيث كانت هذه الأبحاث قد طرقتها من قبل الزرادشتية والمانوية وغيرهما .

وتعريف مذهب الجبرية هـــو :

نفى الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الرب تعالى ، اذ العبد لايوصف بالاستطاعة ، وانما هو مجبور فى أفعاله لاقدرة له ولاارادة ولا اختيار ، وانما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات وتنسب الأفعال الى الانسان مجازا كما تنسب الى الجمادات ، كما يقال أثمرت الشجرة ، أو جرى الماء وتحرك الحجر وطلعت الشمس أو غربت ، وغامت السماء وأمطـرت ، وازدهرت

الأرض وانبتت الى غير ذلك . والثواب والعقاب من الجبر واذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا من الجبر (١) .

وكان الجهم بن صفوان مع دعوته الى الجبر ، يدعو الى آراء أخرى منها :

١ – ان الجنة والنار تفنيان وأن لاشيء بخالد ، والخلود المذكور في القرآن هو طول المكث وبعد الفناء لا مطلق البقاء .

٢ – أن الايمان هو المعرفة فقط ، وأن الكفر هو الجهل .

٣ – علم الله وكلامه حادثان .

٤ – لاينبغي أن يوصف الله بأنه شيء أو حي ، وقال لا أصفه بوصف يجوز اطلاقه على الحوادث ، وقد نفى رؤية الله ، وقال بخلق القرآن بناء على أن كلام الله حادث لاقديم . وهي القضية التي ستصبح شغل علماء الكلام الشاغل .

ولقد شن المعتزلة كما سنرى حربا شعواء على نظرية الجبر ومع ذلك فسوف يأخذون بنظرية الجهم بن صفوان في خلق القرآن ... وقد حان الكلام لنتحدث عن المعتزلة الذين كانوا هم فرسان المعارك التي شنوها ضد المرجئة وضد معتقدات أهل السنة . وكفر بعضهم بعضا .

نشأة المعتزلة :

يعتبر المعتزلة في تاريخ الاسلام رواد الحركة الفكرية الذين احتكموا الى العقل في كل أمور الدين ، ولذلك فقد اصطدموا مع

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني .

كل الجهات والفرق والتيارات الاسلامية ، وأثاروها حربا شعواء على مخالفيهم في الرأي ، وبادلهم خصومهم التحية بمثلها وأزيد منهـــا .

وقد اختلف في نشأة المعتزلة ، فيرجع بهم البعض الى هؤلاء القوم الذين اعتزلوا الخلاف بين علي ومعاوية .

ولكن الأكثرين وما عليه الرأى ، هو أن الفرقة التي أطلق عليها اسم الاعتزال تبدأ بواصـــل بن عطاء ، وكان من تلامذة الحسـن البصري الذين يحضرون دروسه بالمسجد . فثارت تلك المســألة التي كانت تشغل الأذهان في ذلك العصر ، وهي مرتكب الكبيرة ومصيره وقد رأينا كيف أن الخوارج يكفرونه ، والمرجئة يفوضون أمره الى الله . فقال واصل بن عطاء مخالفا الحسن البصري : أنا أقول أن صاحب الكبيرة ليس مؤمنا باطلاق وليس هو بكافر ، فهو في منزلة بين المنزلتين ، ثم اعتزل مجلس الحسن ، واتخـذ له مجلسا آخر في المسجد ، ومن هنا أطلق عليه ومن تابعه اسـم المعتزلة .

ولاجدال في أن واصل بن عطاء كان يتمتع بشخصية الزعامة فقد استطاع أن يجذب الى رأيه أعدادا وفيرة ، بل وراح يوفد بعضها من أفرادها الى البقاع الاسلامية للتبشير والترويج لفكرته التي لم تلبث أن تفرعت عنها أفكار أخرى أشد خطرا . وبدأ المعتزلة يزيدون ويتكاثرون ، واشتد خطرهم عندما اعتنق الخليفة المأمـون مذهبهم ففوض اليهم سلطة القضاء والافتاء واكراه خصومهم على اتبـــاع مذهبهم كما سنرى عند الحديث عن محنة خلق القرآن .

وقد بزغ في سماء الاعتزال نجوم أعلام ، كواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وأبي الهزيل العلاف ، والنظام ، وكان الجـــاحظ أحد أئمتهم ، وناهيك بالجاحظ مؤلف البيان والتبيين وكتاب الحيوان

والبخلاء ، من عملاق فى الفكر العربى الاسلامى . وقد تعددت فرقهم فباعتبارهم قوما يستخدمون العقل ، سقط من بينهم التقليد ، واجتهد كل منهم فى رأيه وعقيدته ، وما يأخذه من الأفكار ومـا يسقطه ، فمن شأن العقول أن تتفاوت فيما تراه .

ولو شئنا أن نوجز القول فى المعتزلة وفى المعـارك التى خاضوها والأفكار التى صاغوها ، لما اتسع لنا هذا الكتاب ، وننصح من يريد الالمام بالكثير من أخبارهم أن يطالع كتاب المرحوم أحمد أمين النفيس ونعنى به ضحى الاسلام بأجزائه الثلاثة .

ومع ذلك فليس بوسعنا وقد ذكرنا المعتزلة ، الا نشـير الى مبادئهم الأساسية وأصولهم الخمسة ، التى شغلت العالم الاسلامى ثلاثة قرون .

مبادىء المعتزلة الخمسة :

يقول أبو الحسن الخياط وهو من كبار المعتزلة : ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، والعدل والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

التوحيـــد :

فاما التوحيد فهو لب مذهبهم والأساس الذى قامت عليـه جماعتهم ، حيث تتمثل فى هذا المبدأ فكرتهم العقلية البحتة عن الله ، عندما يكادون يجعلون منه شـــيئا مطلقا ومعنى ذهنيا ولا زيادة .

فالله عند المعتزلة : واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - وهم هنا يستعملون نص عبارات القرآن التى يجمع عليها المسلمون ولكنهم يمضون بعد ذلك فيرددون الكلمات والعبارات الاقرب الى الفلسفة اليونانية .

فالله ليس جسما ، ولا هو شبح ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذى لون ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ، ولا عرض ، ولا عمق، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعض ، وليس بذى أبعاض وأجزاء ، ولا جوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حداثتهم ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات، وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولاتحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير ما شبه له ، ولم يزل أولا سابقا متقدما للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ، ولا يزال كذلك ، لاتراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالأسماع ، شيء لا كالأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وانه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولااله سواه ولا شريك فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين له على انشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبقه ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولاتلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل اليه الأذى والآلام ، ليس بذي غاية فيتناهي ، ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز

والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء وعن اتخـــاذ الصـــحابة والأبنـــاء (١) .

وهدف المعتزلة هنـــا ومن هذا السرد الطويل ، هو رغبتهم فى توحيد الله وتنزيهه ، وهو لب الايمان فى الاسلام ، ولكنهم روعوا (بحق) معاصريهم من أهل السنة وهم يستعملون ألفاظا جديدة فى الحديث عن الله ، حتى ولو كانت فى معرض السلب ونفيها عن الله فهى تجرح اذن المؤمن الذى يقدس ذات الله كالقول عن الله . انه ليس لحما وليس دما ، وليس جثة ولا طعما .. الى آخر هـــذا الفيض من التعريفات والتى أغنت عنها آية واحدة من آيات القران: « ليس كمثله شىء » أو ما زادته الآيات من سورة الاخلاص عندما قالت : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

تأويل ألفاظ القرآن :

وقد فرعوا على هذا القول الذى قالوه ، أن راحوا يؤولون كل ماجاء فى القرآن من ألفاظ واشارات الى الجوارح المنسوبة الى الله ، الى معان مجـــردة . فيد الله قـــدرته ، ووجه الله ذاته ، واستواؤه على العرش ، أى سلطانه .

كما نفوا الأحاديث التى تشير الى رؤية الله يوم القيامة لأن الرؤية تفيد الجسمية والجهة وهو منزه عنهما .

واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » وقوله سبحانه لموسى عليه السلام « لن ترانى » ، وأولوا آيات أخرى من مثل : «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» فقالوا ناظرة أى منتظرة .

---

(١) مقالات الاسلاميين للاشعرى .

وفزع أهل السنة واستطارت القضايا، أنهم يطالعون فى القرآن يد الله ، ولا يحاولون معرفة كيفيتها ، ويؤمنون بأنها يد ليست كالأيدى ، وليست مجسدة ، ولله وجه بغير كيف ولا تجسيد ، ويطالعون « الرحمن على العرش استوى » فيشـــعرون برهبتها وهولها ، ويقفون عند هذا القدر فلا يحـــاولون التعمق فى معنى الاستواء ، وماهية العرش . . وقد لخص ابن حنبل رأى أهل السنه عندما سئل عن الاستواء .

فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهـــول والسؤال عنــه بدعة .

أجل كانت هذه الأبحاث الجديدة ، حول تعطيل ألفاظ القرآن واعتبارها ألفاظا مجازية ، بدعة خطرة ، قد تهـز الايمـــان من أســاسه .

صفـــات الله :

وزاد المعتزلة فى ترويع أهل السنة ، فخاضوا فى مبحث جديد يعيا به العقل ، ولكن المعتزلة لم يتهيبوه ، وذلكم هو البحث فيما أسموه « بصفات الله » وهذا التعبير بصفات الله لم يرد فى القرآن ولا فى الحديث ولم يتكلم به أحد من الصحابة أو التابعين ، بل جاء فى القرآن ما ينزه الله عن الصفات « سبحان ربك رب العزة عما يصـــفون » .

وقد صرح القرآن بما يمكن أن يقال انها أوصاف لله . من أنه عالم حى قادر مريد سميع بصير متكلم ، فراح المعتزلة يطــرحون السؤال التالى : هل هذه الصفات هى الذات نفسها ، أم هى شىء زائد عن الذات ، وانتهوا فى رأيهم الى أن هذه الصفات ليست

(١) مقالات الاسلاميين للأشعرى .

شيئا مستقلا عن الذات ، بل هى الذات ، لأن القول بغير ذلك معناه أن هناك الله وهناك ارادة الله . وهناك الله وهناك علم الله ، وهكذا وذلك يؤدى بنا الى تعدد القدماء وهو مايتنافى مع التوحيد ، فليس سوى الله .

وقد نفوا عن الله صفة الكلام — ومن هنا قالوا ان القرآن مخلوق .

واستطار غضب أهل السنة ، وقالوا هؤلاء قوم يعطلون صفات الله ، ويكفرون اذ يقولون أن القرآن مخلوق .

العدل :

اذا كان القول الأول الذى انتهى بوصف القرآن أنه مخلوق هو الذى أثار الضجة الكبرى فى العالم الاسلامى ، مما سنعرض له فى الفصل التالى ، فان المبدأ الثانى من مبادىء المعتزلة لم يكن أقل اثارة للخلاف واحتدام المعارك .

ويبدأ المعتزلة من نقطة لا يخالفهم فيها مخالف وهى وصف الله بالعدل ، وكانوا يفخرون بأنهم أهل العدل والتوحيد .

ولكنهم لايقفون عند هذا القدر ويشرعون فى التفريع فيقولون — وجدنا من فعل الجور كان جائرا ومن فعل الظلم كان ظالما ، ومن أعان فاعلا على فعله ثم عاقبه عليه كان جائرا عابثا ، والعدل من صفات الله والظلم والجور منفيان عنه ، قال تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » (٤٦ فصلت) « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ... » (١٠١ هود) .

وتوصلوا من ذلك الى القواعد التالية :

١ ـ ان الله يسير بالخلق الى غاية ، وان الله يريد خير ما يكون لخلقه .

٢ ـ وان الله لايريد الشر ولا يأمر به .

٣ ـ وان الله لم يخلق أفعال العباد لاخيرا ولا شرا وان ارادة الانسان حرة ، والانسان خالق أفعاله ـ ومن أجل ذلك كان مثابا على الخير معاقبا على الشر .

وقالوا لو أن الله هو الذى خلق أعمال الناس ، فهو اذن لايرضى عما فعل ، ويغضب لما خلق ويكره مادبر وهو محال على الله .

وقد لخص المسعودى فى مروج الذهب نص عبارة المعتزلة فى ذلك فقال : « وأما القول بالعدل ـ وهو الأصل الثانى ـ فهو أن الله لايحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وانه لم يأمر الا بما أراد ، ولم ينه الا عما كره ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يطيقونه، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه ، وأن أحدا لايقدر على قبض ولا بسط الا بقدرة الله التى أعطاهم اياها ، وهو المالك لها دونهم يفنيها اذا شاء ،ويبقيها اذا شاء ، ولو شاء الله لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطراريا عن معصيته ، ولكان على ذلك قادرا ، غير أنه لا يفعل ، اذ كان فى ذلك رفع للمحنة وازالة للبلوى (١) .

ورفض الجبرية بطبيعة الحال الى القول بحرية الانسان وخلقه أعماله ، ورفض أهل السنة القول بأن الانسان يخلق أعماله ، فالله عندهم هو خالق كل شىء ، ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون ان الله

---

(١) مروج الذهب ـ كتاب التحرير ـ الجزء ٢٠ .

أودع في الانسان القدرة على نسبة العمل اليه بالاكتساب مما أفاض فيه وشرحه ابن حزم فى كتابه الفصل والنحل ، وان كان بطبيعة الحال لايحسم القضية (١) .

وقال أقوام ممن لايعجبهم قول المعتزلة في أن الله يسير بالخلق الى غاية ، وأن الله يريد خير ما يكون لخلقه : لقد منع الأموال قوما ، وأعطاها آخرين ، وأعطى قوما مالا ورياسة فبطروا وهلكوا ، وكانوا مع القلة والخمول صالحين وأمرض أقواما فملوا وضجروا ونطقوا بالكفر ، وكانوا فى صحتهم شاكرين ، وأى صلاح فى خلق ابليس والشياطين ، وأعطائهم القوة على احتلال الناس ، ثم وجدناه تعالى أمات سريعا من ولى أمور المسلمين بالحق والعدل ، وولى عليهم زيادا والحجاج وبغاة الخوارج ، فأى مصلحة فى ذلك لزياد والحجاج وقطرى أو لسائر المسلمين ، الى آخر ما فى العالم من شرور لاحد لها ، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة ، ولم خلق من يفسد الحرث والنسل ، ويثير الظلم ، ويميت الحق؟ ولم أنظر ابليس الى يوم القيامة وأمات النبى صلى الله عليه وسلم فهل ذلك أصلح للخلق ؟ (٢) .

والحق أن موضوع الحرية والاختيار أو الجبر ، كما ذكرنا عند عرض مذهب الجبرية ، مما يعيا العقل بالوصول فيه الى نتيجة حاسمة ، ولكنك ترى أن المعتزلة قد واجهوا القضية بكل شجاعة ومضوا فيها حتى نهايتها ، يقررون خلق الانسان لأعماله بقدرة أودعها الله فيه وانه مسئول عنها ومحاسب .

---

(١) كتابنا (الطاقة الانسانية) .

(٢) وهكذا زج المعتزلة بأنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، وهم يتحدثون عن غايات الله ويرسمون هذه الغايات ويحددونها على ضوء المقاييس الانسانية . ومن الخير أن يسلم الانسان أن عقولنا لا تصلح الا لأن توصلنا الى وجود خالق لهذا الكون ، وان ما زاد على ذلك فالعقل غير قادر على استيعابه .

الوعد والوعيد :

وكان من المنطق أن يرتبوا على ذلك نتيجته الطبيعية ، فقالوا بالوعد والوعيد فالله لا يمكن الا أن يجازى المحسن بالاحسان ، ومن أساء بالسوء ، ولا يمكن أن يغفر الله لمرتكب الكبيرة فهو مخلد فى النار واستندوا فى ذلك الى قول القرآن : بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٨١ البقرة) ورد عليهم المرجئة فى قولهم ان وعد الله ووعيده لا يمكن الا ان ينفذا ما دام الله قد وعد وأوعد فقالوا : ان وعد الله لا يتخلف ، ولكن وعيده قد يتخلف ، لأن الثواب فضل فيفى الله به ، لأن الخلف فى الوعد نقص ، والعقاب عدل ، وله أن يتصرف فيه كما يشاء ، ولا يعد الخلف فى الوعيد نقصا .

المنزلة بين المنزلتين :

واختلف المعتزلة فى مبدئهم الرابع مع المرجئة ومن قال بقولهم من أن الأيمان هو تصديق بالقلب ونطق باللسان ، بل هو عندهم فوق ذلك عمل بالجوارح . وأن كل عمل فرضا كان أو نفلا هو من الايمان وعلى ذلك فالايمان يزيد وينقص . وكلما ازداد الانسان خيرا ازداد ايمانا ، وكلما عصى نقص ايمانه .

وانتقلوا من هذا التعريف الى أن المعاصى التى يرتكبها الناس تنقسم الى صغائر وكبائر ، والكبيرة عندهم هى ما جاء فيها وعيد ثم قالوا ان الكبائر يصل بعضها الى حد الكفر ، وهناك كبائر يسمى مرتكبها فاسقا ، والفسق منزلة بين المنزلتين : لا كفر ولا ايمان . فالفاسق ليس مؤمنا ولا كافرا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الواجبات المفروضة على المسلمين على وجه الكفاية بنص القرآن « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »
(١٠٤ آل عمران)

وقد اختلف الصحابة فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فالبعض وقف عند حد الانكار بالقلب واللسان ، بينما رأى البعض وجوب استخدام اليد والسيف .

وقد بالغ الخوارج فى هذا الأصل كما قدمنا فأشقوا أنفسهم وأشقوا العالم الاسلامى معهم ، للدعوة الى ما يعتبرونه خيرا وازهاق ما يتصورنه منكرا .

وقد أخذ المعتزلة بهذا الرأى ، فكانوا يؤلبون العامة على الزنادقة والمنحرفين، وعندما تمكن المعتزلة من السلطان، استخدموه كما سنرى لاكراه مخالفيهم فى الرأى على اعتناق مذهبهم .

وأنت ترى أن أصول المعتزلة فى أساسها من توحيد وعدل وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ووعد ووعيد ، هى من أصول الاسلام .

وللمعتزلة باجماع الآراء صفحة مشرقة فى دفاعهم عن الاسلام ضد النصارى واليهود والزنادقة والملاحدة . وقد كان هذا هوالذى دفعهم لدراسة الفلسفة الاغريقية وأساليب المنطق ومختلف الديانات فأغنوا الفكر الاسلامى بمؤلفاتهم وقد كانوا على درجة كبيرة من البيان والفصاحة ، والاقتدار على توجيه الكلام ، والتأثير على السامعين . فما الذى جعلهم محل النقمة من القرون التى تلت عصرهم .

لاجدال فى أن ذلك يرجع الى عاملين :

الأول : استخدامهم السلطة فى ايذاء مخالفيهم كما سنرى .

والثانى : عدم تحــرجهم أو تأثمهم فى اعمال العقل فى أى قضية مهما بلغت حساسيتها وقداستها عند المسلمين .

أنظر الى قول بعضهم فى انتقاد الصحابة على مانقله عنهم ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة :

انا رأينا الصحابة أنفسهم ينقد بعضهم بعضا ، ولو كانت الصحابة عند نفسها بالمنزلة التى لايصح فيها نقد ، لعلمت ذلك من حال نفسها لأنهم أعرف بمحلهم من عوام أهل دهرنا . وهــذا طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم فى جانبهم لم يروا أن يمسكوا عن على ، وهذا معاوية وعمرو بن العاص يقصرا دون قتاله .

والصحابة قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم .

فأنت ترى أنهم يطلقون القول فى غير حرج أو تأثم فى أى موضوع من الموضوعات .

فالأسلوب الذى انتهجه المعتزلة ، وليس جوهر تعاليمهم ، هو ما جعلهم محل النقمة فى عصرهم والعصور التالية .

ولقد ملأ المعتزلة العالم الاسلامى طوال ثلاثة قرون بالجــدل والخطب والمناظرات والكتابات التى أججت معارك الرأى . وكانوا هم فيها قطب الرحى ومركز الدائرة ، وازدحمت بهم مجالس الأمراء والقادة ، وتضاربت حولهم الآراء .

العصر الحديث والمعتزلة :

وقد بدأ المعتزلة يجدون من مفكرى العصر الحديث وعلمــاء المسلمين المجتهدين التقدير الذى حرموه فى القرون الســابقة ،

فأحمد أمين فى ضحى الاسلام ، وأن راح ينـاقش المعتزلة ، فهو جد متعاطف معهم .

وهذا هو الشيخ الفقيه محمـد أبو زهرة يرى للمعتزلة ميزات ويقف عند بعضها فمثلا :

١ ـ مجانبتهم التقليد ومجافاتهم الاتباع لغيرهم من غير بحث أو تنقيب ووزن للأدلة ومقاسة للأمور . والاحترام عندهم للآراء لا للأسماء ، وللحقيقة لا للقائل . لذلك لم يكن يقلد بعضهم بعضـا وهذا هو السبب لافتراقهم الى فرق كثيرة .

٢ ـ اعتمادهم على العقل فى اثبات العقائد وقد اتخذوا من القرآن مددا حتى لايذهب بهم الشطط الى الخروج عن جادته ، ولم تكن لهم معرفة بالحديث كبيرة لأنهم ماكانوا يأخذون به من العقائد ولا يحتجون به .

٣ ـ اخذهم من مناهل العلوم التى ترجمت فى عصرهم فقـد ضربوا بهم فى تلك العلوم ، ونالوا منها مايساعدهم فى اللحن بالحجة ومقارعة الخصوم ، ومصارعة الأقوام في ميدان الكلام ، وقد انضم اليهم كل مسلم مثقف بالثقافة الأجنبية التى غذت العقل العـربى فى ذلك العصر . اذ وجد ما يلائمه فى آراء المعتزلة التى كانت جامعة بين الروح الدينية التى تظلها ، وفكرة التنزيه التى تسيطر عليها، والأفكار الفلسفية التى ترضى النهمة العقلية ، لذلك كان من رجالها كثيرون من الكتاب المتازين ومن العلماء المبرزين والفلاسفة الفاهمين جمع عظيم .

٤ ـ اللسن والفصاحة والبيان ، وقد كان من بين رجالهم خطباء مصاقع ومجادلون قدمرسوا بالجدل فعرفوا أفانينه، وخبروا طرقه وعرفوا كيف يصرعون الخصوم ، ويلوون عليهم المقاصد ، وهـذا واصل بن عطاء ، خطيب عظيم عليم بخواطر النفوس حاضر البديهة

قوى الارتجال ، وهذا النظام من شيوخهم كان ذكيا بليغا فصيح اللسان أديبا شاعرا ، وهذا أبو عثمان عمرو الجاحظ الذى يقول فيه أحد الصابئة ثابت بن قره « أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ، ومدرة المتقدمين والمتأخرين ، أن تكلم حكى سحبان البلاغة ، وأن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، شيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آنفا ، ولا تعرض له متعرض ، الا قدم له التواضع استبقاء (١) » .

الميادين التى خاض فيها المعتزلة المعارك :

وقد خاض المعتز قضايا الرأى ضد الروافض والتنويه والجهمية وسائر أهل البدع من ناحية ، ومع الفقهاء والمحدثين من ناحية ثانية ، وقد اعتبرهم هؤلاء الأخيرون من أهل البدع . فاستطال عليهم المعتزلة بقوة السلطان ، وهنا تكمن سقطتهم الكبرى التى شوهت صفحتهم التى لاتخلو من خير كثير . وهو ما اشتهر فى التاريخ الاسلامى باسم « محنة خلق القرآن» .

---

(١) أبو حنيفة ـ محمد أبو زهرة ـ ص ١٥٥ .

الفصل السادس

قضية خلق القرآن
ومحنة أحمد بن حنبل وأنصاره

كان يمكن أن يذهب المعتزلة فى التاريخ الاســـلامى علما على ازدهار الايمان بالعقل فى الاسلام ورفعه مكانا عليا ، لولا أنهم عندما واتتهم الظروف ، وتقلدوا السلطة بعد أن اعتنق الخليفة المأمون مذهبهم وقرب منه زعماءهم ، اســتغلوا هذه المكانة التى وصلوا اليها لكى يحملوا الناس على أفكارهم ومبادئهم حملا . وبلغ بهم الأمر الى حد استغلال مرض المأمون وتفويضـــه أمور الدولة الى كبيرهم أحمد بن أبى دؤاد ، لكى يصدروا الأوامر بعزل كل من لا يقول بقولهم من القضاء والمفتيين ، ثم بالغوا بعد ذلك فهددوا على لسان المأمون بقطع رقاب من لا يقول بقولهم ، ثم وقع منهم ما وقع لأحمد بن حنبل ، ليحملوه على القول بخلق القرآن .

خلق القرآن :

وليس هناك ما يوضح منهج المعتزلة فى فهم الدين وتحكيم العقل ، وما عنوه بمبدأ التوحيد ، من تتبع موضوع خلق القرآن، فقد تفرعت هذه الفكرة من قولهم على ما أشرنا من قبل الى ان الله وصفاته وحدة لاتقبل التجزئة ، وما دامت صفات الله هى ذاته ، فهى لا يمكن أن تقبل التغيير أو التنوع ، ونحن نرى فى القرآن أمرا ونهيا ووعدا ووعيدا ، وهذه كلها حقائق وخصائص متباينة ومن المحال أن يكون الواحد متنوعا الى خواص مختلفة وهذه الخواص قد تتضاد كالذى بين الأمر والنهى .

واذا كان القرآن كلاما أزليا باعتباره صفة من صفات الله ، فانه يترتب على ذلك جملة استحالات .

أولها : أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأمورا فلا يصح أن تصدر « أقيموا الصلاة » الا اذا كان هناك مأمورون بالصلاة ، ولم يكن فى الأزل مأمورون مخاطبون ، ومحال أن يكون المعدوم مأمورا ،

والأمر من غير مأمور ، والكلام كله من غير مكلم ، أمحل ما ينسب الى الحكيم .

الثانى : أن الخطاب مع موسى عليه السلام ، غير الخطاب مع محمد عليه السلام ، ومناهج الكلامين مع الرسولين مختلفة . ومستحيل أن تكون بمعنى واحدة ، هو فى نفسه كلام مع شخص على معانى ومناهج ، وكلام مع شخص آخر على معان ومناهج أخرى ، ثم يكون الكلامان شيئا واحدا ومعنى واحدا ، أضف الى ذلك أن الخبرين عن أحوال الأمتين مختلف لاختلاف حال الأمتين ، فكيف يتصور أن تكون حالتان مختلفتان يخبر عنهما بخبر واحد . والقصة التى جرت ليوسف واخوته غير القصة التى جرت لآدم ونوح وابراهيم واذا اختلفت هذه الاختلافات استحال أن يكون الكلام صفة الله وهو الواحد فى ذاته وصفاته الذى لا يختلف ولا يطرأ عليه اختلاف .

الثالث : أن المسلمين أجمعوا قبل ظهور هذا الخلاف على أن القرآن كلام الله ، واتفقوا على أنه سور وآيات وحروف منتظمة وكلمات مجموعة ، وهى مقروءة مسموعة ، ولها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله ، وأجمعت الأمة على أنه بين أيدينا نقرؤه بألسنتنا ، ونحسه بأيدينا ، ونبصره بعيوننا ، ونسمعه بأذاننا ، ومحال أن يكون هذا كله وصفا لصفة الله فالكلام الأزلى الذى هو صفة الله ، لا يوصف بهذه الأوصاف (١) .

وهكذا جرى المعتزلة على منهاجهم ، يطلقون العقل ليصدر أحكامه العقلية غير متهيبين ولا وجلين من اى نتيجة ينتهون اليها، ما داموا يجدون من بعض آيات القرآن ما يعزز رأيهم ، وسنرى فيما بعد الآيات التى استدلوا بها .

---

(١) ضحي الإسلام الجزء الثالث ـ ص ٣٤

وقد لخص الزمخشرى فى تفسيره للقرآن فى « الكشاف » قول المعتزلة وأدلتهم فى خلق القرآن فى مقدمة تفسيره فقال : الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ، ونزله بحسب المصالح منجما ، وجعله بالتحميد مفتتحا ، وبالاستعاذة مختتما ، وأوحاه على قسمين متشابها ومحكما وفصله سورا ، وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات ، وما هى الا صفات مبتدأ مبتدع ، وسمات منشأ مخترع ، فسبحان من استأثر بالأولوية والقدم ، ووسم كل شيء بالحدوث عن العدم ، أنشأه كتابا ساطعا تبيانه ، قاطعا برهانه ، وحيا ناطقا ببينات وحجج قرآنا عربيا غير ذى عوج » .

ولو وقف المعتزلة عند هذا القول ، لما كان عليهم من حرج ، ولكنهم أبوا الا أن يركبوا متن الشطط ، فيكفرون من لا يقول بقولهم ، ثم يستعملون سلاح التهديد والتعذيب لاكراه المخالفين على القول بقولهم . مستعينين فى ذلك بالمأمون .

والآراء متفقة على أن المأمون قال برأيه فى خلق القرآن منذ عام ٢١٢ هـ وجهر بهذا الرأى فى مجالسه ، ودارت المناظرات فى حضرته حول هذه القضية ، دون أن يرغم أحدا على رأى معين .

ولكن المسلمين فوجئوا بالمأمون فى سنة ٢١٨ هـ وهى نفس السنة التى مات فيها ، وهو يحمل الناس على فكرته ، وهذا ما جعل الكثيرين يشكون فى أن يكون المأمون فى حالة طبيعية عندما أصدر هذه الأوامر التى جاءت فى الكتب المنسوبة اليه ، ويرجحون ان هذه الكتب هى من انشاء وزيره أحمد بن أبى دؤاد ، وأنه استغل مرض المأمون لكى يكتب على لسانه هذه الرسائل التى حفظها لنا التاريخ ، بنصها ، وقد كتبت كلها عام ٢١٨ هـ حيث كان المأمون يقيم ببلدة الرقة ، وبعث بها الى عامله على بغداد اسحق ابن ابراهيم .

واليك نص الرسالة الأولى نقلا عن الطبرى :

كتاب المأمون الأول

الى اسحق بن ابراهيم نائبه فى بغداد

(أما بعد) فان حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم فى الاجتهاد فى اقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والاقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته .

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشد الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به، ونكوب عن واضحات اعلامه ، وواجب سبيله، وقصوروا أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى: « انا جعلناه قرآنا عربيا » .

فكل ما جعله الله فقد خلقه وقال :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (الأنعــام ١)

وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » .
(طــه ٩٩)

فأخبــر أنه قصص لأمور أحدثها بعــدها ، وتلا به متقدمها وقال : « الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير »
(هـــود ١)

وكل محكم مفصل دخله محكم مفصل والله محكم وكتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا الى قولهم ، ونسبوا أنفسهم الى السنة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوة مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم من أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيىء آرائهم ، تزينا بذلك عندهم ، وتصنعا للرئاســـة والعــدالة فيهم ، فتركوا الحق الى باطلهم ، واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، وثقل أديمهم ، وفساد ديانتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى اليها جروا ، واياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق ، ودرسوا ما فيه ، اولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها . فراى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون من الايمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، لسان ابليس الناطق في أوليائه ، والمسائل عن

أهوائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صـدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فانه لا عمل الا بعد يقين ، والا بعد استكمال حقيقة الاسلام ، واخلاص التوحيد . ومن عمى عن رشده ، وحطه من الايمان به وتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله ، والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين ، أن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته . وأن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه ، من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله . فاجمع من بحضرتك من القضـاه واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وأحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومساءلتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يره . والامتناع عن توقيعها عنده ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضـاة أهـل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفـذ أحكام الله الا بشـهادة أهل البصـائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكـون فى ذلك أن شاء الله .

(كتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ)

وواضح أن هذه الرسالة ، بما فيها من حشو وتزيد وترسل وتكرار ، لا يمكن أن تكون من كتابة المأمون ، فضلا عن أن أسلوبها يتحدث عن أمير المؤمنين بصيغة الغائب ، فأقصى ما يقال فى هذه

الرسالة لو صحت نسبتها الى المأمون أنها كتبت بأمره دون املائه . وقد شفع المأمون هذه الرسالة برسالة ثانية زاد فيها الأمر تفصيلا ، واستشهد بآيات جديدة من القرآن لم يستشهد بها فى رسالته الأولى كقول القرن الكريم :

« وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » (الأنبياء ٢)

« لا تحرك به لسانك لتعجل به » (القيامة ١٦)

ومضت الرسالة تعلق على ذلك بقولها : فسمى الله تعالى القرآن ذكرا وايمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا وقصصا . واعتبرت الرسالة أن من لا يقول بأن القرآن مخلوق فهو مشرك ، وطلب المأمون فى ختام الرسالة من اسحاق بن ابراهيم رجالا سماهم له ليمتحنهم .

امتحان الفقهاء :

وصدع اسحق بن ابراهيم بالأمر فاستدعى من أشار المأمون بدعوتهم ومن هم فى درجتهم ، من الفقهاء والمحدثين . ولما اجتمعوا عنده تلا عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه ثم شرع فى استجوابهم وتسجيل الأسئلة والأجوبة بالكتابة . وكان أول من استجوب بشر بن الوليد :

- ما تقول فى القرآن .
- قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة .
- قد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى .
- أقول القرآن كلام الله .

ـ لم أسألك عن هذا ـ أمخلوق هو ؟

ـ الله خالق كل شيء ·

ـ القرآن شيء ؟

ـ هو شيء ·

ـ فمخلوق ؟

ـ ليس بخالق ·

ـ ليس أسألك عن هذا ـ أمخلوق هو ؟

ـ ما أحسن غير ما قلت وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ما قلت ·

فأخذ اسحق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ووقفه عليها فقال :

ـ أشهد أن لا اله الا الله أحد فرد لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ·

ـ نعم وقد كنت أضرب الناس على دون ذلك ·

فقال اسحق بن ابراهيم للكاتب · أكتب ما قال · ثم استدعى على بن أبى مقاتل ·

ـ ما تقول يا على ·

ـ سمعت كلامى لأمير المؤمنين غير مرة وما عندى غير ما سمع فامتحنه بالرقعة فأقر ما فيها ، ثم سأله :

ـ القرآن مخلوق ؟

- القرآن كلام الله .

- لم أسألك عن هذا .

- هو كلام الله . وان أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

فقال للكاتب أكتب مقالته . ثم قال للذيال نحوا من مقالتـــه لعلى بن أبى مقاتل فقال له مثل ذلك . ثم سأل أبا حسان الزيادى:

- ما عندك ؟

- سل ما شئت .

- ما رأيك فيما جاء بهذه الرقعة .

- أقر بما فيها — ومن لم يقل هذا القول فهو كافر .

- القرآن مخلوق هو ؟

- هو كلام الله — والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق — وأمير المؤمنين امامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنـــا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى امامتــه امامة ، وان أمرنا ائتمرنا ، وان نهانا انتهينا ، وان دعانا أجبنا .

- القرآن مخلوق هو ؟

- كرر ما سبق أن قاله .

- ان هذه مقالة أمير المؤمنين .

- قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر الناس بها ولا يدعوهم اليها ، وان أخبرتنى ان أمير المؤمنين أمرك ان أقول ، قلت ما أمرتنى به ، فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شيء ، فان أبلغتنى عنه بشيء صرت اليه .

ـ ما أمرني أن أبلغك شيئاً .

علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها .

أبو حسان : ما عندي الا السمع والطاعة فمرني ائتمر .

اسـحق بن ابراهيم : ما أمرني أن آمرك ، وانما أمرني أن أمتحنك .

أحمد بن حنبل :

واستدعي أحمد بن حنبل للاستجواب :

ـ ما تقول في القرآن ؟

ـ هو كلام الله .

ـ أمخلوق هو ؟

ـ هو كلام الله لا أزيد عليه .

فامتحنه بالرقعة فلما أتى الى عبارة « لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه . قال ابن حنبل :

ـ أقول ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وهنا اعترض ابن البكاء الأصغر فقال :

ـ أصلحك الله انه يقول سميع من أذن ، بصير من عين .

فسأل اسحق أحمد بن حنبل :

ـ ما معنى قوله سميع بصير ؟

ـ هو كما وصف نفسه .

ـ ما معناه ؟

ـ لا أدرى ـ هو كما يصف نفسه .

ثم دعا اسحق بن ابراهيم جميع من حضر رجلا رجلا كلهـم يقول القرآن كلام الله الا هؤلاء النفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد ابن الحسن ، وابن عليه الأكبر ، وابن البكاء وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منبه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشيء منه الا أنه دس فى ذلك الموضع ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابن الأحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فانه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : انا جعلناه قرآنا عربيا . والقرآن محدث لقوله تعالى : ما يأتيهم من ذكر من ربهـم محدث . فقال له اسحق :

ـ فالمجعول مخلوق .

ـ نعـــم .

ـ فالقرآن مخلوق .

ـ لا أقول « مخلوق » ، ولكنه مجعول .

فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالتهم ـ وجه الى المأمون بالمحضر المسجل وبعد تسعة أيام ورد كتاب المأمون ردا على ما جاء فى أقوال الفقهاء وهى رسالته الثالثة : ولسنا نرى اثبات هـذه الرســالة لطولها من ناحية ، ولأنها لم تحو جديدا ، فقـد راح المأمون ، او بالأحرى من كتب على لسان المأمون ، يفحش فى القول ضد الفقهاء ، ويكيل لهم التهم . ويعدد آثاما اقترفوها . وختم الكتاب بأن طلب أن يرسل له كل من لم يعدل عن شركه ، موثقا مقيدا بالحديد ليتولى هو امتحانهم .

اقرار الأغلبية بأن القرآن مخلوق :

وكان طبيعيا ، وقد وصل الأمر الى حد التهديد بالعزل من الوظيفة والقبض والحبس ، أن يتراجع بعض الفقهاء وأن يقولوا مقالة المأمون ، ولا لوم عليهم ولا تثريب ، فلا اثم ولا جريرة على المكره والمضطر .

« فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » (البقرة ١٧٣)

وقد جاء فى الحديث : سقط عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

على أن نفرا من الفقهاء احتسبوا أنفسهم عند الله ورأوا أن يدفعوا بدمائهم عن عقيدة السلف من المؤمنين ويسقطوا شهداء الحق والايمان ، وحق الانسان فى التمسك بعقيدته . وكان على رأسهم احمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، ويوسف بن يحيى .

ولقد أصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ويوسف بن يحيى على قولهم ، ولم يرجعوا ، فشد الامام أحمد ومحمد بن نوح فى الوثائق ووجها الى طرسوس ، وكتب معهما كتاب سرد فيه اسحق بن ابراهيم ، ما وقع من باقى القوم واصرار هذين الامامين على رفضهما القول بخلق القرآن .

وأنقذ الموت محمد بن نوح فمات فى أصفاده شهيد عقيدته ، ولم يبق سوى أحمد بن حنبل ، وقد تركز فيه بعد موت ابن نوح ، المدافع عن مذهب أهل السنة والسلف من العراقيين (١) .

---

(١) نقول من العراقيين ، لأن يوسف بن يحيى الفقيه المصرى صاحب الامام الشافعى ، قد امتنع بدوره عن ان يقول بخلق القرآن ، ومات فى السجن شهيد عقيدته .

وحمل أحمد بن حنبل من بغداد الى المأمون فى طرسوس ، ولكن المنية عاجلت المأمون قبل وصول أحمد بن حنبل اليه . على أن موت المأمون لم يفد أحمد بن حنبل ، ذلك أن المأمون قبل موته كان قد بايع لأخيه المعتصم على الملك ، وأوصاه أن يتخذ من أحمد بن أبى دؤاد وزيرا ، ومن القول بخلق القرآن عقيدة يمتحن الناس عليها . وقد كان المعتصم على خلاف المأمون أميا لا يكاد يقرأ أو يكتب ، ولذلك فقد أصدر أمره بسجن أحمد بن حنبل فظل قعيد السجن ثمانية وعشرين شهرا وقيل أكثر من ذلك . وأخيرا دعى من السجن ليواجه المعتصم .

وفى حضرة المعتصم دارت المناظرة بين ابن حنبل الذى كان يرسف فى قيوده الثقيلة ،وبين بطانة المعتصم من العلماء وعلى واسهم أحمد بن أبى دؤاد ، وكان أحمد بن حنبل لا يفتأ يطالب بدليل من الكتاب والسنة ، فيهتف أبو دؤاد مستنكرا : أولا تقول الا بهذا أوذاك ،فيجيب ابن حنبل فى هدوء وثقة واعتداد : وهل يقوم الاسلام الا بهما .

وطالت المناظرة ، يوما بعد يوم ، فضاق المعتزلة وهيجوا عليه المعتصم ، حتى قال له : لعنك الله طمعت فيك أن تجيبنى ثم لم تجبنى . ثم أصدر أمره قائلا : خذوه واخلعوه واسحبوه .

ويقص علينا أحمد بن حنبل قصة جلده بعد ذلك فيقول : فأخذت وسحبت وخلعت ، وجيء بالعقابتين (أى آلة الجلد) وبالسياط وأنا انظر ، وكان معى شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم مصرورة فى ثوبى فجردونى منه ، وصرت بين العقابتين ، فقلت يا أمير المؤمنين : الله ... الله ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله الا باحدى ثلاث وتلوت الحديث ،وقال رسول الله : أمرت أن

أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ، فبم تستحل دمى ولم آت شيئا من هذا ؟

« ياأمير المؤمنين اذكر وقوفك من الله كوقوفى بين يديك » فكأنه أمسك ، ولكنهم لم يزالوا يقولون له : ياأمير المؤمنين انه ضال مضل كافر ، فأمر بى فقمت بين العقابتين ، وجيء بكرسى فأقمت عليه ، وأمرنى بعضهم أن آخذ بيدى بأى الخشبتين ، فلم أفهم فتخلعت يداى ، وجيء بالضرابين ، ومعهم السياط ، فجعل أحدهم يضربنى سوطين فيقول له المعتصم : شد ، قطع الله يديك ، ويجيء الآخر فيضربنى سوطين ثم الآخر كذلك، فضربونى أسواطا، فأغمى على وذهب عقلى مرارا ، فاذا سكن الضرب يعود على عقلى ، وقام المعتصم الى يدعونى الى قولهم فلم أجبه ، وجعلوا يقولون : ويحك الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد الى ، فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ، ثم جاء الى الثالثة ، فدعانى فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلى فلم أحس بالضرب ، وأرعبه ذلك من أمرى ، وأمر بى فأطلقت ، ولم أشعر الا وأنا فى حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأصفاد من رجلى ، وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة احدى وعشرين ومائتين . انتهت أقوال ابن حنبل .

وكان المعتصم قد أمر باعادته الى أهله . وكان جملة ما ضرب بضعا وثلاثين سوطا ، وقيل ثمانين ، وكان ضربا مبرحا شديدا جدا (١)

وهكذا روع الضارب ولم يرتعب المضروب ، وفزع الظالم ولم يفزع المظلوم ، وتكسرت ارادة صاحب السلطان ، تحت أقدام الورع والتقوى واليقين .

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية جزء ١٠ ص ٣١٤ .

وعاد ابن حنبل الى بيته وقد حددت اقامته فلا يخرج الى جمعة أو جماعة ومنع عن تعليم الناس وكان يعيش من دخل يدره عليه عقار كان يملكه يبلغ سبعة عشر درهما فى كل شهر ، فكانت هذه هى نفقته على نفسه وعياله .

وعلى هذا النهج مضت حياته أيام المعتصم التى انتهت بموته عام ٢٢٧ هـ وولى من بعده ابنه الواثق فسار سيرة أبيه وعمه ، ولكنه لم يلبث أن مات عام ٢٣٢ هـ ، وولى الخلافة أخوه المتوكل الذى كان محبا لأهل السنة ، فزالت بولايته المحنة ، وانقشعت عن ابن حنبل وكثيرين غيره الغمة ، وارسل المتوكل الى أحمد ابن حنبل يستدعيه اليه معززا مكرما . وحاول المتوكل أن يغمره بالعطايا والأموال والخلع ، ولكن أحمد بن حنبل ، اعتذر عن قبول شىء من صلات الخليفة وكثيرون من الناس صمدوا فى وجه شدائد أقوى مما تعرض له ابن حنبل ، ولكن أقل من القليل ، من تعرضوا لمحنة الغنى ونجوا من فتنتها .

لقد خوفوا أحمد بن حنبل بغضب المتوكل اذا هو رفض عطاءه ، فأخذ منهم المال ، ولكنه لم يبت فى بيته فقد وزعه على المحتاجين من أهل المدينة ، وأراد المتوكل أن يتخطى أحمد بن حنبل فأرسل عطاياه الى أولاده وذوى قرباه ، فحرم أحمد ابن حنبل على نفسه ، أن يأكل من طعامهم ، أو يشرب شرابهم .

ومرض أحمد بن حنبل ، فأرسل له المتوكل جهابذة أطبائه فعادوا يقولون له : ياأمير المؤمنين ، أن احمد بن حنبل ليس به علة فى بدنه ، وانما علته من قلة الطعام ، وكثرت الصيام والعبادة .

وفاة أحمد بن حنبل

وفى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من سنة ٢٤١هـ مات أحمد بن حنبل ، فأرسل له نائب المتوكل الكفن ، فقال أولاده

أن أمير المؤمنين قد أعفاه فى حيـاته مما يكره ، وأبوا ان يكفنوه بتلك الأكفان ، وأتوا بثوب كانت جارية له قد غزلته فكفنوه به . وحضر غسله نحو مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم ، وخـرج الناس بنعشه ، والخلائق من حوله رجالا ونساء لا يعلم عددهم الا الله ، وتقول بعض الروايات ، أن عدد المشيعين لجنازته كان مليونا وثلثمائة ألف ، ويزيدهم البعض الى مليون وسبعمائة ألف.

وسواء أصحت هذه الروايات أم دخلتها المبالغة ، فان الاجماع على أن بغداد لم تشهد من قبل أو من بعد جنازة مماثلة لجنازة ابن حنبل .

موت احمد بن أبى دؤاد :

ولن تكتمل الصورة الا اذا أضيف اليها أن احمد بن أبى دؤاد مات فى نفس السنة ، بعد أن جرده المتوكل من أمواله وأملاكه ، وأخرجه عن كل ماله ، ولم يسر فى جنـازته الا عدد محدود من الرجال الرسميين .

وقد دل ذلك على أن جماهير المسلمين قد حكمت بين الرجلين ، فيما يشبه أن يكون استفتاء شعبيا جامعا . وقد قال بعض أهل العلم يوم وفاة احمد بن حنبل :

اليوم مات سادس خمسة هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز .

استمرار المعـركة :

ولكن هل انحسمت قضية خلق القرآن بموت أحمد بن حنبل ، وأحمد بن أبي دؤاد ، اللهم لا فقد مضت المعركة بين المفـكرين وهى

تزداد كل يوم تأججا بعد أن كثر انصار من يرفضون القول بخلق القرآن ، وكان قدرا أن يكون واحدا من كبار المعتزلة ، هو الذى يوجه ضربة قاضية للاعتزال والمعتزلين ، وذلك هو الامام أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى ، شيخ أهل السنة والجماعة كما أصبح يلقب .

أبو الحسن الأشعرى :

رأينا فيما سبق أن الامام الشافعى تلقى عن المدرستين ، مدرسة الحديث ومدرسة الرأى ، فخرج بمذهب جديد ، يعتبره الكثيرون أكثر نضارة وبهاء من أى مذهب آخر ، لاستطاعته أن يوفق بين تقديس الحديث ، وبين أعمال القياس ، أى بين النقل والعقل .

فكذلك شاء الله ، أن يقوم أبو الحسن الأشعرى بالنسبة لعلم الكلام ، بما قام به الشافعى فى علم الفقه ، واذا كان قد قيل عن الشافعى انه مجدد الاسلام فى المائة الثانية ، فقد قيل كذلك عن الأشعرى انه مجدد الاسلام فى المائة الثالثة .

والأشعرى من أحفاد أبى موسى الأشعرى ، وكان من كبار المعتزلين بالبصرة فى ختام القرن الهجرى الثالث ، تلقى علم المعتزلة على يد شيخه أبى على الجبائى ، وكان الأشعرى لفصاحته وذلاقة لسانه ، يتولى الجدل والمناظرة نيابة عن شيخه الذى كان يحذق الكتابة والدفاع بالقلم ، ولا يجيد النقاش باللسان . ولأمر ما توقف الأشعرى عن اندفاعه فى تأييد الاعتزال ، وخلا بنفسه فترة من الزمان يراجع القضية التى وقف نفسه على خدمتها ، فاذا به يغير رأيه فى خلوته ، ويقرر أن يكرس ما بقى من حياته

فى محاربة المعتزلة ومطاردة أفكارهم ، فطلع على الناس ذات صباح فى المسجد وارتقى كرسيا ثم قال : « أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرافه بنفسى .. أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وان الله تعالى لا يرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر كلها أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع عن كل ذلك ، متصد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم . أيها الناس ، انما تغيبت عنكم هذه المرة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى شىء على شىء ، فاستهديت الله تعالى فهدانى الى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هذه » .

وأعلن الأشعرى انه ينخلع من جميع ما كان يعتقد ، كما ينخلع من ثوبه ، قال هذا وانخلع من ثوبه ، ودفع الى الناس ما كتبه .

أبو منصور الماتريدى :

ومن عجب انه بينما كان ابو الحسن الأشعري ، يسلك هذا السبيل فى العراق فى الربع الأول من القرن الرابع ويموت فى عام ٣٣٠ هـ كان هناك عالم معاصر له ولد فى قرية « ماتريد » من أعمال « سمرقند » وتفقه على مذهب أبى حنيفة ونبغ حتى أصبح فقيه الناس فى منطقة ما وراء النهر ، ثم رأى أن يؤلف فى الأصول والعقائد فكان كتابه فى الجدل وشاعت شهرته فى منطقة خراسان . وقد ألف الماتريدى فى علم الكلام كتاب الرد على الكعبى المعتزلى ، وكتاب أوهام المعتزلة ، وكتاب الرد على الرافضة ، وكتاب الرد على القرامطة ، وأصبح الماتريدى والأشعرى رأسا لمدرسة جديدة جمعت فى علم الكلام بين العقل والنقل ، ولكن الحظ الأوفى من الشهرة تعلق بأذيال الأشعرى فى منطقتنا على الأخص .

مقالات الاسلاميين والابانة :

وقد الف الأشعرى عشرات الكتب ، وملأ عصره بالخطب والمناظرات ، ومن أهم ما وصل الينا من كتبه مقالات الاسلاميين والإبانة ، وفى الكتاب الأول بسط الأشعرى فى استيعاب رائع مختلف أقوال الفرق والنحل فى أيامه (١) ، مما اشرنا الى أهمها فيما سبق ، مع تركيز على مذهب المعتزلة ، أما فى الكتاب الثانى وهو الابانة فقد تصدى للرد على المعتزلة وتحديد مذهبه الذى نسب اليه .

عقيدة الأشعرية :

ويحدد الأشعرى مذهبه فى مقدمة كتاب الابانة بقوله : فان قال قائل : قد انكرتم قول المعتزلة والقدرية والحرورية ، والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذى تقولون ، وديانتكم التى بها تدينون ، أقول له قولنا الذى به نقول وديننا الذى به ندين :

« التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (٢) ، وما روى عن الصحابة والتابعين وائمة الحديث ، وبما كان عليه احمد بن حنبل نضر الله وجهه ، فهو الامام الفاضل والرئيس الكامل .

وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئا . وان الله اله واحد ، فرد صمد ، لا اله الا

---

(١) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ـ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
(٢) باختصار عن « الابانة عن اصول الديانة » الطباعة المنيرية .

هو ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور ، وأن الله استوى على عرشه كما قال « الرحمن على العرش استوى » وأن له وجها كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وأن له يدين كما قال « بل يداه مبسوطتان » وأن له عينا بلا كيف كما قال « تجرى بأعيننا » وأن الله علما كما قال « أنزله بعلمه » ونثبت لله السمع والبصر ، ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية . ونقول ان كلام الله غير مخلوق .

وأن اعمال العباد مخلوقة لله مقدورة له كما قال سبحانه « والله خلقكم وما تعلمون » (الصافات ٩٦) وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ، ونظر لهم وأصلحهم ان كانوا صالحين ، ولأنه هداهم كانوا مهتدين ، كما قال تبارك وتعــالى : « من يهــد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون » (١٧٨ الأعراف) ونؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره . ونؤمن أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، ونقول ان الــكافرين عنه محجوبون ، كما قال الله عز وجل « انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (١٥ المطففين) ونرى الا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه ، وأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

ثم بين الأشعرى حدود الامامة وأنها باختيار المسلمين ، وفضل الخلفاء الراشدين على ترتيبهم ثم قال : ونشهد للعشرة المبشرين بالجنة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتولى ســائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونكف عما شجر بينهم .

واذا كانت هذه الفقرات التى سقناها باختصار من مقــدمة الكتاب تحدد اتجاه الأشعرى ، فان الكتاب يتناول ذلك كله بالشرح والتفصيل .

علو شأن الأشعرى :

وقد علا شأن الأشعرى وعظمت منزلته وازداد أنصاره زيادة كبيرة . وحظى بتأييد الحكام ، وهكذا انبث أنصاره فى الأقاليم والجهات ، يتعقبون المعتزلة والكفار وأهل الاهداء . وبعد موته ازداد علو شأنه ، واطلق عليه أكثر العلماء امام أهل السنة والجماعة . وقد خلف الأشعرى تلميذا نابها حمل لواء دعوته بعد موته وهو أبو بكر الباقلانى .

ابن حزم والأشعرى :

ولكن قضية الرأى لم تقف ، فقد استمر المعتزلة يدافعون عن أنفسهم ومبادئهم ويهاجمون الأشعرى ، فى الوقت الذى تصدى ابن حزم الأندلسى ، الذى أشرنا اليه من قبل باعتباره أحد أئمة فقه الظاهر ، للأشعرى فراح فى كتابه الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، يتعقب الأشعرى فى كثير من مقولاته ويردها ويخالفها (١)

---

(١) ذكر الفقيه العالم محمد أبو زهرة فى كتابه ابن تيمية ص ١٩٢ ، أن ابن حزم فى هجومه على الأشعرى ، اعتبره من الجبرية لرأيه فى أفعال الانسان ، وأشار أبو زهرة الى رقم الصفحة والجزء الذى ورد فيه هذا القول من ابن حزم . وقد عدنا الى حيث أشار شيخنا ابو زهره فوجدنا ابن حزم يقول :

الكلام فى القدر . قال أبو محمد اختلفت قضايا الناس فى هذا الباب فذهبت طائفة الى أن الانسان مجبر على أفعاله وانه لا استطاعة له أصلا وهو قول جهم بن صفوان وطائفة من الأزارقة . وذهبت طائفة أخرى الى أن الانسان ليس مجبرا وأثبتوا له قوة واستطاعة بها يفعل ما اختار فعله ، وقد افترقت هذه الطائفة على فرقتين ، فقالت احداهما الاستطاعة التى يكون بها الفعل لا تكون الا مع الفعل ولا تتقدمه البتة . وهذا قول طوائف من أهل الكلام ومن وافقهم كالنجار والأشعرى .

وهذا القول من ابن حزم فى تقرير مبدأ الأشعرى يدل على عكس ما نسبه اليه شيخنا أبو زهرة .

الأشعرية والامام الغزالى :

واحتدم الخلاف الفكرى كذلك بين الأشاعرة وبين الغزالى ، فرد عليهم فى رسالته « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » وقد جاء فيها :

وزعمهم أن فى بعض كتبنا ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شعرة كفر ، ومباينته ولو فى شيء نزر ضلال وخسر ، فلا يضق صدرك أيها الأخ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستصغر من بالكفر والضلال لايعرف . فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين . خاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر ، فان زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى ، أو مذهب المعتزلى ، أو مذهب الحنبلى أو غيرهم ، فاعلم انه غر بليد ، قد قيده التقليد فهو أعمى من العميان . فلا تضيع باصلاحه الزمان ، وناهيك حجة فى افحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه (١) .

حجة الاسلام الغزالى :

على أن حديث الغزالى الى حديث يطول ، ويحتاج الى أن نفرد له فصلا خاصا به ، مهما يكن حجم هذا الكتاب .

---

(١) انظر كتاب ابن تيمية ـ محمد أبو زهرة .

الفصل السابع

حجة الإسلام الغزالي
عملاق القرن الخامس الهجري

قضاياه مع نفسه ـ مع الباطنية ـ مع الفلاسفة ـ تهافت الفلاسفة ورد ابن رشد فى تهافت التهافت

اذا كان ابو الحسن الأشعرى قد اعتبر لدى البعض مجدد الاسلام فى المائة الثالثة او الرابعة ؟ فان عددا أكبر وخاصة فى عصرنا الحديث ، يعتبرون الغزالى هو مجدد الاسلام فى المائة الخامسة ، يشهد بذلك أن كتابه الأحياء قد طبع فى القاهرة وحدها عشرين مرة ٠

والغزالى ككل شخصية عظيمة تفترق حولها الآراء فيبالغ محبوه فى مدحه والثناء عليه ، والمعتدلون من محبى الغزالى يعتبرونه قطب الدنيا وواحدها ، وفى الناحية المقابلة يبالغ بعض أصحاب مدرسة الحديث فى الهجوم عليه ٠

واعتدل البعض فى نقده ، فأخذوا عليه امتلاء الأحياء بالأحاديث الضعيفة بل والموضوعة ، وقد ناقش المحققون هذه القضية ودافعوا عن الغزالى . ولقد رأينا من قبل كيف هاجمه الأشعرية .

ولكن الذين هاجموا الغزالى ، كالذين مجدوه واكبروه ، لا يختلفون حول كونه من اكبر العقول التى اخرجها المجتمع الاسلامى وأنه الف من الكتب ما لم يسبقه اليه سابق . ويهبط البعض بعدد مؤلفات الغزالى جدا ، فيجعلوها أربعين مؤلفا ، يتألف المؤلف الواحد من عديد المجلدات ، بينما يرتفع البعض بهذه المؤلفات الى ما فوق الأربعمائة وقد أجرى الدكتور عبد الرحمن بدوى بحثا حول مؤلفات الغزالى بتكليف من المجلس الأعلى للفنون والآداب بمناسبة اقامته مهرجانا فى دمشق احتفالا بانقضاء تسعمائة سنة على وفاة الغزالى ، وقد خرج من بحثه القيم بكتاب أسماه « مؤلفات الغزالى» وقد أحصى فى هذا الكتاب ٦٩ مؤلفا ، مقطوعا بصحة نسبتها الى الغزالى وسجلها تحت رقم ١ الى ٦٩ ، وقد استعرض كل مؤلف

من هذه المؤلفات ومقدار النسخ الخطية الموجـودة منه وأماكنها وما طبع منها وما ترجم الى اللغات الأجنبية .

وفى القسم الثانى من الكتاب استعرض الكتب التى يدورالشك فى صحة نسبتها الى الغزالى .

وقد رقمها حتى نمرة ٩٥ وقسم ثالث اشـتمل على الكتب التى رجح الدكتور عبد الرحمن بدوى أنها ليسـت للغزالى وان نسبت اليه ومعظمها فى السحر والطلسمات والعلوم المستوردة ورقمها تحت نمرة ٩٦ ـ ١٢٧ .

أما القسم الرابع فقد خصصه لأجزاء من كتب الغزالى اعتبرت كتبا مستقلة ووردت بعناوين مغايرة ، ورقمهـا بأرقام ١٢٨ حتى ٢٢٤ .

أما القسم الخامس فللكتب المقولة من رقم ٢٢٥ حتى رقم ٢٧٣ .

والقسم السـادس لكتب مجهولة الهوية ورقمت من ٢٧٤ حتى ٣٧٩ .

أما القسم السـابع والأخير فاشتمل على فهرس لمخطوطات موجودة ومنسوبة الى الغزالى ورقمها برقم ٣٨١ حتى ٤٥٦ .

ثورة فكرية :

ولعله لا يوقفك على ما أحدثه الامام الغزالى من ثورة فـكرية رجت العالم الاسلامى رجا ، اكثر من أن تطالع هذا العدد الضخم من الكتب التى نسبت للغزالى ، لكى تأخذ اعتبارها عند الناس .

أما ما كتب ضد مؤلفات الغزالى ، أو تعليقا عليها أو تأييدا لها فشىء يفوق الحصر ، فمذ كان الغزالى حتى اليوم ، وهو يثير حربا

فكرية وروحية ، ولا عجب في ذلك فقد كان هو نفسه أول من أثار الحرب ضد نفسه .

فحيث ارتفع فى السؤدد والاعتبار حتى يقول عنه ابن عساكر :

« وعلت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كان يغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة ، وكان يحضر دروسه فى المدرسة النظامية ببغداد أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم » .

ثم انخلع عن ذلك كله الى الزهد حتى يقول عنه الامام أبو بكر ابن العربى أنه رأى الغزالى فى البرية بعد أن تصوف ، وفى يده عكاز وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ، فلما دنا منه قال يا امام اليس تدريس العلم ببغداد خيرا من هذا ، فنظر اليه الغزالى شزرا وقال له: لما طلع بدر السعادة فى سماء الارادة ، وجنحت شمس الوصول فى مغارب الأفوال : ثم أنشد قائلا :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل ... وعدت الى تصحيح أول منزل
ونادت بى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد ... لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

وكان ملبوس الغزالى يقوم فى بغداد هو وما يركبه بخمسمائة دينار ، وقدر لباسه بعد زهده بخمسة عشر قيراطا والقيراط جزء من عشرين من الدينار .

قضية الغزالى مع نفسه :

ويحدثنا الغزالى عن نفسه وكيف صار الى الزهد فيقول :

« وقد ظهر عندى : أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب

عن الدنيا ــ ولاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب .

« ولاحظت اعمالى ــ وأحسنها التدريس والتعليم ــ فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت : فتيقنت انى : على شفا جرف هار واننى قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافى الأحوال . فلم ازل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد أقى مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا وتحمل عليها جند الشهرة حملة فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق فى العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل . فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار .

« ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، اياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسه ولا يتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة ، قريبا من ستة أشهر أولها : رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختبار الى الاضطرار اذ أقفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد

نفسى أن أدرس يوما واحـــدا ، تطييبا لقلوب المختلفة الى ، فـكان لسانى لا ينطق بكلمة واحدة ولا استطيعها البتة ، حتى أورثت هذه الغفلة فى اللسان ، حزنا فى القلب ، بطلت معه قـوة الهضم ومراءة الطعام والشرب ،فـكان لا ينساغ لى ثريـد ، ولا تنهضم لى لقمة . وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم المسلم .

« فلما احسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على الأعراض عن الجاه والمـال والأولاد والأصحاب . وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وأنا ادبر فى نفسى سفر الشام ... »

وعلى هذه الوتيرة يمضى الغزالى فيفصل لنا فى كتابه الخالد « المنقذ من الضلال » قصة حياته وكيف ساوره الشك فى كل شىء الى أن قذف الله فى قلبه اليقين ، فعاد الى نشر العلم مرة أخرى بعد عشر سنوات ، ولكنه العلم الذى لا يبغى من ورائه الجاه والمال وانما العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، وهو التصوف الذى فصله فى كتابه الأعظم « احياء علم الدين » .

كتاب احياء الدين وما أثار من معارك فى المغرب :

واذا كان الغزالى يعد من كبار الفقهاء الذين الفوا فى الفقه ويعتبر كتابه المستصفى من أعظم كتب الأصول واذا كان قد الف فى علم الكلام، وخاض المعارك ضد الباطنية والفلسفة مما سنعود اليه، فان درة حياته ، وفضله الأكبر على الاسلام ، انما انبثق من كتاب الاحياء والذى اسهم بالفعل فى احياء علوم الاسلام . فالفقه الذى

كان قد انفصل عن أصوله ، وأصبح علما جافا لايقوى على مطالعته الا المتخصص فى هذه المادة المنقطع لها ، أعاده الغزالى الى حيويته، ونضارته ، بربطه بأصول القرآنية ، وأعمال الرسول صلوات الله عليه ، ثم أضاءته بالاشراق الروحى الذى انبثق فى قلبه ، فأصبح الكتاب وكأنه لحن سماوى، وكانت الأخلاق وآداب السلوك الاسلامية توشك على الاندراس فأشعل من جديد جذوتها ، وكان التصوف قد تحول الى هذر وتخبطات ، فجعل الشريعة من جديد أساسه ، وهكذا بعثه من جديد علما وسلوكا وطريقا لبلوغ الكمال الخلقي والنفسى . وكل ذلك بكتاب واحد هو كتاب الاحياء .

حرق الاحياء وتمزيقه :

ويسجل لنا التاريخ ، كيف غضب سلطان المغرب على ابن يوسف بن تاشفين (١) على كتاب الاحياء ،ويرى أو يقول له فقاؤه ضيقوا العقول ، ان كتاب الأحياء هو كتاب زندقة والحاد فيأخذ بكلامهم عن غير وعى ، ويصدر أمره بحرق كتاب الاحياء وكل كتب الغزالى ، فيجاء بها الى صحن جامع قرطبة وتحرق، وكان ذلك حدثا جديدا فى محاربة الفكر عن طريق احراق بعض كتبه ، ولاشك أن سلطان المغرب قد قلد فى هذا أسلوب الأوربيين فى هذه الفترة من حياتهم حيث كانوا يحرقون كتب العلم باعتبارها كفرا وتجديفا

---

(١) كان الغزالى على علاقة وثيقة بيوسف بن تاشفين والد على ، وكان ابن تاشفين يستشير الغزالى فى كل أموره ويستفتيه • وبلغت من وثاقة الصلة بينهما آن كان الغزالى أشبه بسفير بن تاشفين لدى الخليفة العباسى ، يحسن الصلات بينهما ، ونجح فى حمل الخليفة العباسى فى الاعتراف بابن تاشفين وقيل ان الغزالى هم بالسفر للالتحاق بابن تاشفين فى المغرب ، وانه جاء الى مصر لتحقيق هذا العزم ، ولكن يوسف بن تاشفين لم يلبث أن مات ، فلم يتحقق المشروع ، فما أعجب أن يتحول علي بن يوسف الى عدو للغزالى وكتبه فيأمر بقطعها •

ولم يلبث على بن يوسف ، ان دفع ثمن هذه الفعلة باهظا ، كما هو الشأن بالنسبة لكل من حاولوا على مر العصور محاربة الفكر بالقمع والسلطان ، فقد انهارت دولة المرابطين لتقوم بدلا عنها دولة الموحدين ، الذين أصبح الاحياء بالنسبة لهم أشبه بالدستور . وأصبح من الأمثال السائرة حتى الآن فى البلاد المغربية : بيع اللحية واشترى الاحيا .

دور الغزالى فى قيام دولة الموحدين :

وتحفظ لنا كتب التاريخ رواية عن سماع الغزالى بنبأ حرق كتبه ، وكيف غضب لذلك ، ودعا الله أن يدمر الله ملك المرابطين ، ونحن نشك فى صحة هذه الرواية ومع ذلك فلا بأس من اثباتها لأنها رائعة الدلالة على انتصار الفكر على السلطان .

معركة الغزالى ضد الفلسفة :

ويستحيل علينا ان نتحدث فى هذه العجالة ، عن الغزالى واثره فى التصوف ، ولا عن معاركه التى خاضها والتى من أشهرها معركته ضد الباطنية (١) ، فلقد أقيم لذلك مهرجان حضره علماء من الشرق والغرب وجمعت خطبهم وأبحاثهم فى مجلد أربى على ٨٥٠ صحيفة ومع ذلك فلم يوف الغاية . وانما نجتزىء من ذلك كله بمعركته مع الفلاسفة ، حيث ينسب اليه أنه هوالذى وأد الفلسفة الاسلامية نهائيا فلم تقم لها قائمة .

يقول الغزالى فى وصف نهمه للعلم والمعرفة :

لم أزل فى عنفوان شبابى — منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين :

---

(١) اقرأ كتاب « فضائح الباطنية » تحقيق عبد الرحمن بدوى .

ـ لا اغادر باطنيا الا واحب ان اطلع على بطانته ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما الا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد خرج الغزالى من أبحاثه الى أن الطالبيين اربع فرق :

١ ـ المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

٢ ـ الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ،والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم .

٣ ـ الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ ـ الصوفية : وهم يدعون أنهم : خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

وقد تصدى الغزالى لهذه الفرق الأربع ، فخالف الثلاث الأولى واستقر على الرابعة .

وقد خصص لمهاجمة الفلسفة كتابه تهافت الفلاسفة ، بعد أن سلك مسلك أبى الحسن الأشعرى اذ ألف « مقالات الاسلاميين » شارحا المذاهب والأقوال المختلفة تمهيدا للرد عليها فى كتاب الابانة وكذلك فعل الغزالى ، فسجل آراء الفلاسفة فى كتابه مقاصد الفلاسفة ، ثم رد عليهم فى تهافت الفلاسفة .

والاجماع على أن كتاب « تهافت الفلاسفة » من أعظم الكتب فى الفكر الاسلامى . ولننقل لك عبارات قليلة جوهر ماجاء فيه كما لخصها الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال :

أعلم أن الفلاسفة على كثرة فرقهم ، واختــــلاف مذاهبهم — ينقسمون الى ثلاثة أقسام : دهريون وطبيعيون والهيون .

والدهريون هم الذين جحدوا الصانع المدبر العالم القــادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيــــوان كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا ، وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثانى الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

فرأوا فيها عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولكنهم ذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحســاب ، وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وصفاته .

والصنف الثالث الالهيون ، وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وهو أستاذ افلاطون أستاذ أرسطو ، وهؤلاء قد ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية وأوردوا فى الـكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

وينتهى الى أن ما صح عنده من فلسفة أرسطو على ما نقــله الفارابي وابن سينا انه ينحصر فى ثلاثة أقسام :

— قسم يجب التكفير به .

— وقسم يجب التبديع به .

— وقسم لا يجب انكاره أصلا — وهو الرياضيات — والمنطق .

وقد حصر الغزالى المسائل التى غلط فيها الفلاسفة وهى عشرون مسألة ، كفرهم فى ثلاث منها ، وبدعهم فى سبع عشرة ، وقد فصل هذه المسائل العشرين بالتفصيل فى كتاب تهافت الفلاسفة ، والثلاث مسائل التى كفر بها الغزالى الفلاسفة الاسلاميين ، باعتبارهم قد خالفوا فيها كافة المسلمين هى قولهم :

١ ــ أن الأجساد لا تحشر ، وانما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

٢ ــ أن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات .

٣ ــ أن العالم قديم أزلى .

ابن رشد يرد على الغزالى :

ومضى على وفاة الغزالى أكثر من مائة سنة ، قبل أن يوجد من الفلاسفة المسلمين من استطاع الرد على الغزالى ، وقد ظهر هذا الفيلسوف فى المغرب ولم يكن فى المشرق ، ذلكم هو القاضى أبو الوليد محمد بن رشد المولود بقرطبة عاصمة الأندلس والذى توفى عام ٥٩٥ هـ • وكان قاضيا ، وفقيها وطبيبا وهو من ألمع نجوم العالم الاسلامى •

وقد راعه أن يجد كتاب تهافت الفلاسفة متداولا بين جماهير المثقفين من المسلمين ، يتخذون منه دستورا ونبراسا ، لكراهية الفلسفة ، وتكفير المشتغلين بها ، فوضع كتابه « تهافت التهافت » ضاربا بذلك كتاب الغزالى باستعمال سلاحه •

واذا كان الغزالى قد هاجم بعض الفلاسفة ووصفهم بالغباوة مما حمله على تحرير هذا الكتاب ، ردا على الفلاسفة القدماء ،

مبيناً تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته ، التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء .

وهم (أى الفلاسفة) الذين انكروا الايمان بالله واليوم الآخر ليسوا الا شرذمة يسيرة ، من ذوى العقول المنكوسة والآراء المعكوسة، الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يعدون الا من زمرة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغبياء والأغمار . فان ابن رشد لا يتردد عن مهاجمة الغزالى والتنديد بمسلكه ، اذ جعل هذه الموضوعات الالهية ، محل مناقشة وجدل يحتكم فيه العامة ، فيقول :

« الكلام فى علم البارى سبحانه ، بذاته وبغيره مما يحرم على طريق الجدال فى حال المناظرة ، فضلا عن أن يثبت فى كتاب ، فانه لاتنتهى افهام الجمهور الى مثل هذه الدقائق ، واذا خيض معهم فى هذا ، بطل معنى الالهية عندهم ، فلذلك كان الخوض فى هذا العلم محرما عليهم ، اذا كان الكافى فى سعادتهم أن يفهموا من ذلك ما أطاقته أفهامهم والكلام فى هذه الأشياء مع الجمهور هو بمنزلة من يسقى السم أبدان كثير من الحيوانات ، التى تلك الأشياء سموم لها ، فان السموم انما هى أمور مضافة (أى نسبية) فانه قد يكون سما فى حق حيوان ، شىء هو غذاء فى حق حيوان آخر .

وهكذا الأمر فى الآراء مع الانسان ، أعنى قد يكون (أى هو سم فى حق نوع من الناس ، وغذاء فى حق نوع آخر ، فمن جعل الآراء كلها ملائمة لكل نوع من أنواع الناس ، بمنزلة من جعل الأشياء كلها أغذية للناس .

فاذا تعدى الشرير الجاهل فسقى السم من هو فى حقه سم على أنه غذاء ، فقد ينبغى على الطبيب أن يجتهد بصناعته فى شفائه ، ولذلك استجزنا نحن التكلم فى هذه المسألة فى مثل هذا الكتاب

والا فما كنا نرى أن ذلك يجوز لنا ، بل هو من أكبر المعاصى ، أو من أكبر فساد فى الأرض ، وعقاب المسفدين معلوم بالشريعة » .

وهذا الاعتراض من ناحية ابن رشد على الغزالى ، يظهر ضعف حجته منذ البداية ، فالغزالى لايكتب للعوام لأن العوام لا يقرأون، وهو يكتب لمناقشة آراء ونظريات مبسوطة فى الكتب المتداولة ، وقد رأينا كيف كان العالم الاسلامى يضطرم بهذه الأفكار . ويضيق المجال عن أن ننقل الكثير أو القليل عن هذه المساجلة الفلسفية بين تهافت الفلاسفة وبين تهافت التهافت ، والكتابان من حسن الحظ قد أعيد طبعهما أخيرا لمن يحب الاطلاع على هذه المناظرات العقلية المعقدة .

ولكننا ننقل بعض فقرات من رد ابن رشد على الغزالى فى المسائل الثلاث التى كفر فيها الغزالى الفلاسفة كنموذج لأسلوب ابن رشد .

موضوع الحشر :

يقول ابن رشد : والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وانما اختلفت الشرائع فى صفة وجوده، ولم تختلف فى الحقيقة فى وجوده ، وانما اختلفت فى المشاهدات التى مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة ، فمن الشرائع من جعله روحانيا أعنى للنفوس ، ومنها من جعله للأجسام والنفوس معا . والاتفاق فى هذه المسألة مبنى على اتفاق الوحى فى ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع فى ذلك أعنى : أنه قد أتفق الكل على أن للانسان سعادتين : أخروية ودنيوية ، وانبنى ذلك عند الجميع على أصول تعترف بها عند الكل .

ويمضى ابن رشد فى بيان هذه الأصول من العقل والنقل .

علم الله بالكليات دون الجزئيات :

يقول الغزالى ان الفلاسفة يرون أنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وليس الأمر كما توهم عليهم بل يرون أنه (أى الله) لايعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها اذا كان علم الله علة لها لا معلولا عنها كالحال فى العلم المحدث ، وهذا هو غاية التنزيه الذى يجب أن يعترف به • ويمضى ابن رشد فى زيادة شرح هذه القضـــــية •

قدم العالم وأزليتـــه :

يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم ، أو حـــدوثه ، فان الاختلاف فيها ـ عندى ـ بين المتكلمين من الأشـعرية وبين الحكماء المتقدمين : يكاد يكون راجعا للاختلاف فى التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن هناك ثلاثة أصـــناف من الموجودات : طرفان وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا فى تســـمية الطرفين واختلفوا فى الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود ، وجد من شيء غيره ، وعن شيء •• أعنى عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه ـ أعنى على وجوده وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة

وأما الطرف المقابل لهـــذا ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان ، وهذا أيضا اتفق الجميع من الفرقتين

على تسميته قديما ، وهذا الموجود مدرك بالبرهان وهو الله تبارك وتعالى الذى هو فاعل الكل والحافظ له سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود الذى بين هذين الطرفين ...

ويمضى ابن رشد فى شرح هذا الصنف (١) .

نهاية الفلسفة الاسلامية :

ولم يستطع ابن رشد بكل المعيته ، أن يعيد للفلسفة الاسلامية مكانتها فى الفكر الاسلامى ، فبعد وفاة ابن رشد عام ٥٩٥ هـ لم يظهر فى العالم الاسلامى فيلسوف فى مثل مكانة أو قدرة الفارابى أو ابن سينا أو ابن رشد ، والجمهور على أن الغزالى هو الذى وجه الضربة القاتلة للفلسفة فلم تقم لها من بعده قائمة ، وهناك من يعزو هـذا التأثير لأبن تيمية ، ويقولون ان الغزالى ظل حتى آخر حياته يؤمن بالمنطق ولزومه للعلم وأن أبن تيمية هو الذى أجهز على المنطق الارسطى ، فعفى بذلك على آخر ظل من تأثير الفلسـفة اليونانية على مناهج التفكير عند المسلمين (٢) .

ونحن ممن يقولون انه لا الغزالى ولا ابن تيمية هما اللذان أجهزا على الفلسفة وحالا بين ظهور فلاسفة جدد فى العالم الاسلامى ، فالفلسفة بمعنى الفـكر ما كان يمكن أن يقضى عليها فى ظل دين يدعو الى الفكر .

ولكن الغواشى التى غشيت العالم الاسلامى بعد ذلك ، هى التى حالت دون ظهور عباقرة الفكر ، وصرفت المسلمين عن أن يشتغلوا

---

(١) اقرأ ردود ابن رشد باكملها فى تعليقات الدكتور عبد الحليم محمود على هامش كتاب المنقذ من الضلال للغزالى .

(٢) راجع مناهج البحث عند المسلمين ــ على سامى النشار .

بهذا الترف الفكرى الذى لم يمكنهم منه الا الاستقرار فى ظل قوة الدولة الاسلامية القائدة .

أما وقد بدأ الغرب الصليبى يغير على العالم الاسلامى من الغرب والتتار من الشرق ــ وسقطت القدس بيد الصليبيين عام ٤٩٢ هـ ــ وسقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ .

فلا عجب وقد تناوش الاسلام أعداؤه من الشرق والغرب أن يضع المسلمون كل هممهم فى النجاة من أعـــدائهم لا فى التفلسف والفلسفة ، ومن هنا بزغ فى سماء العالم الاسلامى نجــوم وقادة من نوع جديد .. أمثال صلاح الدين ، وقطز وبيبرس وغيرهم من القواد العسكريين. ووجد من العلماء طراز آخر لم يشهد له العالم الاسلامى من قبل ، علماء يتصدون للســـلاطين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويصل الأمر ببعضهم الى حد عـــرض الأمراء للبيع ، فحق أن يطلق عليه سلطان العلماء وبائع الملوك وذلــكم هو العز بن عبد السلام ، وهو ما يحتاج منا الى افراده بالحديث .

الفصل الثامن

طراز جديد من العلماء
يعلون بقوة الدين على السلاطين والأمراء

عز الدين عبد السلام

بائع الملوك وسلطان العلماء

ننتقل بعد الغزالى الى طراز جديد من العلماء يفرضون أنفسهم فرضا على هذا الكتاب وقد يكون الحديث عنهم خروجا من الناحية الفنية البحتة عن موضوع الكتاب من حيث هو يؤرخ لمعارك الرأى والفكر ، فلم تكن القضية التى سنعرضها قضية خلاف فكرى بين نظرية وأخرى ، وانما هو خلاف فى التطبيق ، يقف فى أحد طرفيه علماء وشيوخ لا حول لهم ولا قوة ولا جاه ، الا ما يكونون عليه من ورع وتقوى واحاطة بعلوم الدين . وفى الطرف الآخر يقف السلطان المادى الغاشم ، بكل جبروته ، وصولجانه ويخرج التقى والورع والعلم منتصرا ، والسلطان منهزما .

ولن نجد صورة ترمز لهذا النوع من القضايا التى دارت بين العلماء والسلاطين ، أروع من صورة عز الدين بن عبد السلام ، الذى لقبه معاصروه بسلطان العلماء ، وأطلق عليه عصرنا الحديث بائع الملوك .

عصر العز بن عبد السلام

ولن نستطيع أن ندرك كيف ارتفع سلطان العلماء ، وعلا من الناحية الأدبية والروحية فوق سلطان الملوك ، الا أن نصور العهد والظروف التى جعلت هذه الظاهرة ممكنة . نحن الآن فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقد مضى على وفاة الغزالى قرابة قرن

ونصف قرن . وقد هزم العالم الاسلامى أمام الصليبيين ، وسقط بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ هـ ، واتخذوا من القدس ، رأس حربة يوجهونها الى قلب العالم الاسلامى ، وكان طبيعيا أن تمتد أطماع الصليبيين الى مصر باعتبارها قلب العالم الاسلامي ،وشجعهم على ذلك خيانة بعض الوزراء ، حتى جاءوا الى مصر بطلب منهم ،وكان ذلك كله نذيرا بقرب نهاية الدولة الفاطمية التى عجزت عن وقف موجة المد الصليبى ، وانبعثت من الأرض الاسلامية قوة جديدة جاءت فى صورة أمير الموصل عماد الدين زنكى ، الذى تمثل فيه رد الفعل الاسلامى فقام يتصدى للصليبيين ويجمع شمل العالم الاسلامى المتمزق ، وأعجلته المنية عن تحقيق هدفه ، ولكنه لم يمت الا بعد أن أخرج الى الدنيا ابنه نور الدين زنكى ، الذى أعاد الى الأذهان ، عصر كبار الصحابة الأمجاد ، من حيث الورع والتقوى والعلم ، والاستعداد للبذل والاستشهاد فى سبيل الله ، فراح يعمل على توحيد العالم الاسلامى ليوجه ضد أعداء الاسلام ، وأنبت حماس نور الدين وايمانه ، صلاح الدين ، الذى بعث به الى مصر ، ليطهرها من حكم الفاطميين المتداعى الذى جر على العالم الاسلامى الهزيمة أمام الصليبيين بعد ما كان لهم من بلاء عظيم ضد امبراطورية الروم ، اذ انزلوا بها هزائم ماحقة ، واستردوا منها الكثير من أقطار الاسلام ودياره ، وأسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية ، وأسس الدولة الايوبية ، ومات نور الدين بعد أن أسلم الشعلة الى صلاح الدين ، وفى عام ٥٨٣ استرد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين وعاد المؤذن ينطلق بصوته مجلجلا لا اله الا الله محمد رسول الله ، وارتفعت أعلام الاسلام ، وارتفعت الرؤوس بعد تنكيسها ، وليس هذا كتاب تاريخ ومع ذلك فلابد من ذكر هذه اللمحات لنعرف

المناخ الذى نشأ فيه عز الدين بن عبد السلام (١) وترعرع ، مناخ ارتفاع كلمة الدين .

ولم يكن صلاح الدين رجل حرب فحسب ، بل كان رجل دين وعلم كذلك ، فأنشأ المدارس فى مصر والشام لتعليم الحديث ، واتخذ من المذهب الشافعى الذى يقوم على الحديث أكثر ما يقوم ، هاديا ونبراسا .

أفلا عجب اذا ما أصبح عز الدين بن عبد السلام ، من كبار فقهاء الشافعية الذى كان قد أصبح المذهب الرسمى للنهضة الجديدة .

ولم يكد يتجاوز سن الشباب حتى كان قد برع فى الفقه والأصول ، وجمع فنون العلم الاسلامى كله من تفسير وحديث وفقه ولغة .

وفى عام ٦٣٥ هـ عهد اليه السلطان الكامل ابن الملك العادل (شقيق صلاح الدين) أن يقوم بالتدريس فى دمشق ، فاتخذ من الزاوية الغزالية فى المسجد الأموى ، مقرا لكرسيه وكان لا يجلس فى هذه الزاوية الا كبار الشيوخ ، ثم لم يلبث السلطان الكامل أن عهد اليه بمنصب الافتاء ثم الخطابة وأخيرا القضاء .

عز الدين يهاجر الى مصر

وقد وقعت لعز الدين بن عبد السلام معارك فى الرأى حول الأمور الاعتقادية مما أشرنا اليه فيما سبق وكان عز الدين أشعريا ، وكان هوى أمير دمشق مع فقهاء الحنابلة ، فوقع الاصطدام وجرت المناظرات والمساجلات ، فخرج منها عز الدين وقد تأكدت

(١) ولد العز عام ٥٧٧ هـ فى دمشق .

زعامته ورياســـته لرجال الدين ، حيث لم يخش فى الحق لومة لائم وجهر بعقيدته ، وأفحم معارضيه .

ثم حدث أن تحالف أمير دمشق مع الصليبيين ، فأنكر ذلك عليه عز الدين بن عبد السلام ، وقرر أن لا يقيم معه فى بلد واحـد ، وبالرغم من أن عز الدين بن عبد السلام كان قد قارب الستين من عمره ، فقد رأى أن ضميره يأبى عليه البقـــاء تحت ظل أمير خان المسلمين ، فهاجر الى مصر عام ٦٣٩ وكان سلطان مصر قد انتهى الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان سلطانا قاسيا ، ومع ذلك فقد سبقت عز الدين الى مصر شهرته ، فعينه نجم الدين خطيبا فى مسجد عمرو بن العاص ، ثم أضـــاف الى ذلك منصب قاضى القضاة ، أعظم المناصب المدنية فى ذلك العصر .

عز الدين يصطدم بنجم الدين

ومن منصب قاضى القضاة ، دارت أعظم المعارك بين ســـلطان الشريعة والقانون والدين ، وسلطان الســـيف والعسف والبطش ... وفى النهاية انتصر القانون ، وسلطان الشريعة .

ففى هذه الفترة كان نجم الدين أيوب قد شرع يؤلف لنفسه جيشا خاصا يتقوى به ، فراح يشترى بأموال بيت المال عبيـــدا وأرقاء من المماليك المستجلبين من أتراك آسيا الوسطى والقـوقاز والشركس ، وبعد حين من الزمان ، كان نجم الدين يرقى هـؤلاء المماليك الأرقاء الى مرتبة الأمراء وكبار رجالات الدولة يأمرون فى الناس وينهون . وغضب عز الدين لهذا التصرف ، فكيف يتـولى شئون الناس من هؤلاء العبيد الأرقاء ، يأمرون وينهون ،وهم بحكم

كونهم رقيقا فان القانون ، أو بالأحرى الشريعة تحظر عليهم البيع والشراء والتعامل فى شئونهم الخاصة الا باذن من مالكهم فكيف يتصرفون فى أقدار الناس . واستخدم العز ما بين يديه من سلطان باعتباره المهيمن على تطبيق القانون ، فراح يوقف كل معاملة لهؤلاء الأمراء المماليك ، فلا يجيز لهم عقد بيع أو زواج أو هبة .

وارتجت الأوساط الحاكمة ، فقد كان هذا التصرف من ناحية العزاهدارا لكرامتهم ، وكشفا لحقيقتهم أمام النـــاس ، فجمعوا صفوفهم تحت رياسة نائب السلطان وشكوا أمرهم الى نجم الدين أيوب .

وهال السلطان هذا العمل من جانب العز ، واعتبره خروجا عن اختصاصه واعتداء على سلطانه ، وذكر الشيخ بكلمات نابيـــة وهدد وتوعد .

ووصل نبأ ما حدث الى عز الدين ، فلم ينتظر حتى يستدعيه السلطان أو يفصله ، بل بادر فاستعفى من منصبه ، وأعلن أنه مادام لا يستطيع أن يعلى سلطان القانون والشريعة فى مصر ، فهو لايمكن أن يبقى بها ، وأن أرض الله واسعة يهاجر الى أى جزء منها .

يقول لنا مؤرخو هذه الحقبة ، ان العز وضع متاعه على حمار ، واركب آل بيته حميرا أخرى ، ثم تبعهم راجلا على قدميه آخـــذا طريق الشام .

وتسامع أهل القاهرة بنبأ ما حدث ، فاذا بالناس تقوم باون جديد لاعلان الاحتجاج لا نحسب أن له مثيلا من قبل ، فقد قررت جمـــاعات ضخمة من الشعب أن تصحبه فى هجرته وتمضى كتب التاريخ لتقول لنا « فلم يصل نحو نصف بريد الا وقد لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبى ولا رجل لا يؤبه اليه يتخلف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم .

ووجد نجم الدين أيوب نفسه في موقف لا يحسد عليه ، وهمس هامس في أذنه : تدارك ملكك والا ذهب بذهاب الشيخ(١) .

ومرة أخرى قد يكون في سوق الخبر على هذه الصورة مبالغة، ولكنه على أية حال ينطوي على دلالته ، والمحقق أن نجم الدين أيوب ، على شراسته وفظاظته ، لم يستخدم العنف في مقاومة الرجل ومن تبعوه ، بل بعث الى عز الدين بن عبد السلام ، من يرجوه أن يعدل عن عزمه وأن يعود الى منصبه وله كل التقدير والاحترام ، فأبى عز الدين أن يرجع الا على شرطه ، ولم يكن شرط عز الدين أقل من بيع الأمراء في مزاد علني باعتبارهم رقيقا لبيت المال ، على أن يحررهم من يشتريهم بعد ذلك .

ورضخ نجم الدين أيوب لهذا الشرط الذي تقضي به الشريعة ، ويحكم به قانون البلاد . وعاد عز الدين الى منصبه وقد أجيب الى شرطه .

وثار الأمراء من المماليك الأرقاء ، وهتف كبيرهم : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربن عنقه بسيفي هذا .

وأسرع نائب السلطنة الى بيت عز الدين وهو شاهر سيفه ، وقرع الباب والشرر يتطاير من عينيه ، وفزع أهل بيت عز الدين وأرادوا أن يخفوه ، ولكن عز الدين نزل في كل هدوء واطمئنان ، وواجه نائب السلطان ، ولم يفزعه السيف في يده ، وقال في صرامة وحزم للرجل :

ـ ماذا تريد ؟

---

(١) عز الدين بن عبد السلام ـ لمحمد حسن عبد الله .

وكان هذا آخر ما يتصوره نائب السلطان ، فاذا به ينهار تحت وطأة هذه المواجهة وتنكسر نفسه ويحس بالذل والضعف ، حتى ليجهش فى البكاء . ثم سأل عز الدين :

ـ ما الذى ستعمله بنا يا سيدى ؟

ـ انادى عليكم وابيعكم .

ـ فيم تصرف ثمننا ؟

ـ فى مصالح المسلمين .

ـ من يقبض الثمن ؟

ـ أنا .

وانتهت آخر محاولة لارهاب الرجل بهذا النصر الذى يعده مؤرخو عز الدين بن عبد السلام من كراماته . ولم يبق الا أن ينفذ ما تعهد به السلطان ، وهو أن يباع الأمراء فى مزاد عام يشترك فيه الجمهور وكان نجم الدين أيوب يرفع المزاد بحيث لا يقدر احد على المزايدة عليه ، ثم يدفع الثمن الى عز الدين ويسرع الى عتق مماليكه .

وصرف عز الدين ثمن الأمراء فى وجوه الخير ومصارف البر المقررة .

ويقف التاريخ مذهولا أمام هذا الحدث ، الذى ارتفع فيه سلطان الشريعة فوق سلطان القوة ، وانتصر فيه الشيخ الهرم الذى لا يملك الا ايمانه وتقواه ، على ملك الأرض بكل حوله وطوله وسجونه .

ويزيل المنكر بيده :

لم يمض عام واحد على هذا الموقف الخالد لعز الدين بن عبد السلام ، حتى كان يصطدم من جديد مع رجال السلطة فقد حدث أن استهان

أمير القصر « أستاذ الدار » بجلال الدين وأحكامه ، فبنى فوق أحد المساجد « طبلخانة » وهو ما يساوى بلغة العصر ، قاعةلسماع الغناء والموسيقى .

ووصل النبأ الى الشيخ عز الدين عبد السلام قاضى القضاة. وغضب لله ، وغضب للشرع ، وغضب للأخلاق والآداب . وقرر أن يصدر أمرا بهدم هذا البناء ، ولكنه عرف أن هذا الأمر لن يجد من يجرؤ على تنفيذه ، فاستقر عزمه على أن يتولى التنفيذ بنفسه ، فجمع أولاده ، والموظفين الذين هم تحت امرته باعتبـــاره قاضي القضاة ، وذهب الى المسجد ، وأعمل معـــوله وأمر الآخرين أن يعملوا معاولهم فى هدم البناء المستحدث الذى أقيم فوق بيتالله، ولم يكتف بهدم البناء ، بل أعلن اهدار عدالة أستاذ الدار معـين الدين ، واهدار العدالة يعنى عدم أهلية الانسان للشهادة .

وكان عز الدين بن عبدالسلام يعرفأنهتجاوز اختصاصهعندما يتولى التنفيذ بنفسه ، وأن السلطان نجم الدين سيعتبر هذاعدوانا عليه شخصيا ، ولذلك فقد بادر فعزل نفسه من منصب القضاء.

وقبل نجم الدين استقالة الرجل الذى يضع نفســـــه فوق سلطانه .

ولكن الرواية لم تتم بعد فصولا ، فقـــد ظل حكم عز الدين ابن عبد السلام باهدار عدالة معين الدين يلاحقه ، فقـد حدث أن أوفد السلطان نجم الدين أيوب رسولا الى المستعصم الخليفـــــة العباسي ، فلما وصل الرسول الى بغداد وأدى رسالته ، سأله من تلقى منه الرسالة :

ــ هل سمعت بنفسك هذه الرسالة من السلطان ؟

ــ لا ولكن حملنيها عن السلطان الأمير معين الدين اســـــتاذ الدار .

وهنا قال الخليفة العباسى :

— ان المذكور غير أهل للشهادة ، فقد اهدر عز الدين عدالته ونحن لا نقبل روايته ، واضطر الرسول الى أن يعود الى سلطان مصر من جديد ليشافهه شخصيا بالرسالة .

وهكذا كان مصير من أسقط عز الدين عدالتــه ، أن لا يعود صالحا للتأدية عن مولاه .

يعظ السلطان ويامره وينهاه :

ومما رواه السبكى فى طبقاته من سيرة الشيخ :

أن الشيخ عز الدين طلع فى يوم عيد الى القلعة ، فشــاهد السلطان والعساكر مصطفة بين يديه ، ومجلس المملكة محيط به ، والأمراء تقبل الأرض بين يديه ، وهو فى قمة أبهته ومجده وسؤدده فقال الشيخ للسلطان :

— يا أيوب ما حجتك عند الله اذا قال لك ، الم أبوىء لكملك مصر ، ثم تبيع الخمور .

— هل جرى هذا ؟

— نعم الخانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنـكرات وانت تتقلب فى نعمة هذه المملكة .

وكان عز الدين يرفع صوته بهذه العبــارات وكل من حول السلطان يسمعه — ورد السلطان :

— يا سيدى هذا أنا ما عملته ، هذا من زمن أبى .

— أو أنت من الذين يقولون « انا وجدنا آباءنا على أمة » ؟

وسأل عز الدين بن عبد السلام أحد تلامذته عن سبب ابداء هذه المآخذ بهذا العنف على رؤوس الأشهاد ، فى يوم عيد ، فأجاب عبد السلام :

ــ رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه .

ــ أما خفت منه ؟

ــ والله يا بنى استحضرت هيبة الله ، فصار السلطان أمامى كالقط .

ولولا أن هذه الروايات تروى لنا عن عز الدين بن عبدالسلام، لما صدقناها ، ولاستبعدناها ولكن الرجل كان فذا بين الرجال ، وظل يتصاعد بهذه المواقف التى خلدها التاريخ ، بحيث أصبحت لا تستغرب .

عز الدين يتحدى الأمراء :

ولم يكد العالم الاسلامى يفيق من أزمة الصليبيين ، حتى نكب بما هو أكثر شرا منها،اذهجم التتار من الشرق واكتسحوا طريقهم يقتلون ويخربون حتى استولوا على بغداد وقتلوا خليفة المسلمين.

وظن أن نهاية العالم الاسلامى قربت،وجمع« قطز»الذى كان متوليا على السلطة الفعلية العلماء ووجه اليهم الاستفتاء التالى :

« لقد استولى هولاكو على البلاد ووصل الى مدينة حلب ، وبيت المال خلو من المال ، والسلطان صغير السن ، وقد ضاعت مصالح الرعية ، والوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير تخشاه الناس ويدفع العدو ، وبيت المال محتاج الى المساعدة بشىء من

أموال الرعية لاقامة الجند وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك» .
واستجاب العلماء الى الشق الأول من الاستفتاء ، فنادوا بخلع السلطان الصغير وتولية قطز سلطانا على البلاد ، أما بالنسبة لما طلبه قطز من فرض ضريبة على الشعب فقد وقف عز الدين غير هياب ولا وجل وأعلن فتواه الخالدة ، التى ظلت دستورا يحتذى من بعده على مر السنين قال :

اذا طرق العدو بلاد الاسلام ، وجب على العالم الاسلامى قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم ، بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبايش المزركشة واسفاط السيوف والفضة وغير ذلك .

وقد أوشك هذا القول أن يكلف عز الدين عبد السلام حياته ، لولا حماية قطز له وابقائه عنده فى قلعة الجبل ، فقد اغتاظ أمراء المماليك من هذا الرجل الذى يريد أن يجردهم من ثرواتهم ، قبل أن تفرض ضريبة على الشعب .

وبهذه الروح وبهذا الايمان ، وهذه التقوى التى سرت من عز الدين الى قطز — كان النصر الخالد فى معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ التى لم تقف عند حد انقاذ الاسلام والمسلمين ، بل لقد أنقذت المدنية والحضارة الانسانية كلها .

أنا أعرفك يا بيبرس رقيقا :

وشوه وجه النصر الذى أعز الاسلام ، مؤامرة الظاهر بيبرس الغادرة على قطز وقتله وهو فى الطريق الى مصر ، وتوليه السلطنة بدلا عنه .

واستدعى الظاهر بيبرس الأمراء والعلماء ، كما كانت العـادة المتبعة لمبايعته بالسلطان ، ومن الذى كان يجرؤ ، على معارضـة الرجل الذى قتل السلطان بيده ، وبايعته الجيـوش والأمراء ، ولكن عز الدين بن عبد السلام ، كان الرجل دائما ، واذا به يفاجىء الظاهر بيبرس وهو فى ذروة جاهه وعظمته :

ـ يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار .

وجاء بيبرس بمن شهد عند عز الدين ، على أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب ، وأن الصالح أيوب قد أعتقه .

وهنا ، وهنا فقط مد الشيخ ليبايع الرجل الذى سـيكون مقدرا له ، أن يكسر شوكة الصليبيين فلا تقوم لهم بعدها قائمة ، ويطارد التتار ويكرر هزيمتهم .

وفاة الشيخ :

وفى عام ٦٦٠ هـ وقد بلغ الرجل من العمر ٨٢ سنة أو ٨٣ سنة على خلاف فى الروايات فى شهر جمادى الأول ، مات هذا الطود العظيم ، الذى أعلى سلطان الشريعة فوق سلطان الحاكم ، وأظهر عظمة الانسان الفرد الذى لا يملك من الأسلحة سـوى قوة اليقين والايمان بالله ، والتجرد من زخارف الدنيا وأعراضها .

وتختلف الروايات حول وقع وفاة الشيخ على الظـاهر بيبرس .. فمن قائل انه حزن وقال لا اله الا الله ــ ما اتفقت وفاة الشيخ الا فى دولتى .

ومن قائل أنه حمد الله وأثنى عليـه وقال : الآن أصبحت سلطان مصر بلا منازع .

وسواء حزن بيبرس ، أم فرح ، سواء أقال العبارة الأولى أم الثانية ، فالواقع المادى .. انه سار على رأس جموع الشعب فى امرائه وأجناده فى جنازة الشيخ وحمل نعشه على كتفه ، وحضر دفنه وأسهم فيه .

ولم يكن حزن دمشق التى ولد فيها بأقل من حزن القاهرة... حيث أذن المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة : الصلاة على الفقيه الامام ، شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . ذلكم هو الرجل، سلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا .

الفصل التاسع

شيخ الإسلام ابن تيمية
أو العاصفة الروحية والفكرية
التي جددت شباب الإسلام ولا تزال
حتى الآن تؤدي دورها

ليس هناك ما يمكن أن يوصف به ، أحمد تقى الدين أبو العباس ابن الشيخ شهاب الدين أبى المحاسن المشهور بأبى تيمية والمولود فى العاشر من ربيع الأول سنة احدى وستين وستمائة بعد الهجرة ، الا أنه عاصفة ، عاصفة بكل رعودها وبروقها ورياحها ورمالها ، ولكنها انسانية دينية فقهية فكرية — هزت الجمود الذى كان قد بدأ يسيطر على الفكر الاسلامى ، حيث علت الدعوة الى التقليد ، وقفل باب الاجتهاد وتحديد مذاهب السنة التى يجب تقليد واحد منها فى أربعة وهى الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وفى العقائد الأخذ بالأشعرية .

وغشى الفكر الاسلامى الصافى غواشى من عقائد المسيحيين والبوذيين والمجوس والهندوك ، وتسربت الى المعتقدات الصوفية فظهرت مبادىء وحدة الوجود ، وهى المعتقد الهندى من أنه ليس هناك ثمة خالق ومخلوق ، وانما هو وجود واحد تتعدد مظاهره . أو القول بفناء المخلوقات فى الخالق والاتحاد به ، أو القول بحلول الخالق فى مخلوقاته .

وجاء ابن تيمية وآلى على نفسه ، أن يهز هذا الركود الاسلامى هزا ، وأن يحارب هذه الانحرافات فى غير هوادة ، وذلك كله بالرجوع الى الأصول الأولى للدين ، للقرآن والسنة كما أصبحت مدونة فى كتب الحديث ، وبعد أن تفوق علماء الحديث ، فى معرفة جيد الحديث وصحيحه ، من ضعيفه والتمييز بين الأحاديث الصحيحة ، والموضوعة وما دام كتاب الله موجودا ، وأحاديث رسوله منشورة ، وفى الرؤوس عقول ، وفى القلوب تقوى وورع فكيف يحال بين المسلمين وبين الاجتهاد ، على أسس اسلامية مؤكدة . ورفع ابن تيمية من جديد علم الاجتهاد ، سالكا طريق السلف من الصحابة والتابعين ، حيث لا فلسفة يونانية ، ولا علم كلام ، ولا منطق شكلى ، وضباب عقلى ، بل دعوة اسلامية كلها نور وصفاء وبساطة .

مجموعة رجال فى رجل :

وشخصية ابن تيمية من الشخصيات التى تثبت أن الطاقة الانسانية لا حد لها ، وأن بقدرة الانسان الفرد أن يصل الى آفاق لا يتصور العقل أن بامكان الانسان بلوغها ، واذا كان البطل فى ميدان من الميادين وفرع من الفروع يبهر الابصار ، فان باستطاعة انسان واحد ، أن يجمع فى نفسه عديدا من البطولات ، مما تكفى البطولة الواحدة منها لهز الوجدان .

فاذا راع الانسان جبروت عقل أبى حنيفة الذى أهلهلأن يكون اماما لمدرسة الرأى ، بالاضافة الى ورعه وتقواه وشجاعته .

واذا راعنا الشافعى لغزارة علمه ، وجودة حفظه وقدرته على القياس والاشتقاق ، وحيويته الدافقة فى طلب العلم ونشره .

واذا أخذ بلبنا صبر أحمد بن حنبـــل على المحنة وانتصـــاره عليها .

واذا أذهلتنا غزارة تأليف الغزالى ، وتعدد ملكاته وعظيم تأثيره فى العالم الاسلامى .

واذا أكبرنا عز الدين بن عبد السلام ، لاعلائه سلطان الشريعة فوق سلطان الملوك والحكام . فاننا واجدون فى حياة ابن تيمية ألوانا من ذلك كله ، حتى ليقف الانسان حائرا ، أى هذه الجوانب من حياة ابن تيمية أروع ، وبأيها استحق خلود أفكاره ، واشتهاره بأنه شيخ الاسلام ، وبقاء منهاجه وتعاليمه حية مؤثرة تعمل الى عصرنا الحديث .

ابن تيمية الفقيه :

هو ابن تيمية الفقيه الذى جدد شباب الفقـــه ، وخرج على العالم الاسلامى ، بأنه من الممكن أن يخرج الانسان على ما تصوره

الناس أنه اجماع المسلمين أو بالأحرى اجماع المذاهب الأربعة ، ما دام فى ذلك يستند الى عمل النبى صلوات الله عليه .

ويصل من النجاح فى هذا الباب ، الى حد يجعل المشرع المصرى الحديث ، يرجع الى فتاواه ، مخالفا ما جرى عليه العمل أكثر من اثنى عشر قرنا — كما هو الشأن فى أخذ قانون الأحوال الشخصية عندنا بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يكون الا طلقة واحدة ، وهو ما ذهب اليه ابن تيمية (١) .

ابن تيمية المتكلم :

أم هو ابن تيمية المنافح عن العقيدة السلفية والمتصدى لمحاربة أصحاب البدع والأهواء ، والذى أكمل ما بدأه الغزالى من محاربة الفلسفة ، وزاد عليه أن قضى على المنطق الأرسطى الذى ظل الغزالى حتى آخر لحظة يؤمن به ويعتبره المدخل لبقية العلوم ، بل يذهب الى حد القول بأن من لا يحيط بالمنطق « فلا ثقة بعلومه أصلا » (٢) حتى ليخلف من ورائه مدرسة تعتبر دراسة المنطق من فروض الكفايات .

أما ابن تيمية فهو الذى تصدى للمنطق الأرسطى بالهدم وراح يناقش مبادئه ومسلماته ويهدمها من أساسها ، ثم يصوغ هو منطقا اسلاميا ، أساسه منهج القرآن والبديهيات العقلية (٣) .

---

(١) استند ابن تيميه فى فتواه على ما روى طاووس عن عبد الله بن عباس أنه قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة فقال عمر رضى الله عنه : ان الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه . والحديث فى صحيح مسلم .

(٢) مقدمة كتاب المستصفى — طبعة مصطفى محمد — ص ٧ .

(٣) اقرأ مناهج البحث عند مفكرى الاسلام — دكتور على سامى النشار .

ابن تيمية المجاهد والمحارب :

وأخيرا وليس آخرا ، أهو ابن تيمية الذى احتمل كل ما تعرض له من محنة السجن أكثر من مره صابرا . أم هو ابن تيمية العالم المحارب الذى حرض المسلمين على حرب التتار ، بل وامتشـــق الحسام واشترك فى الحرب ضدهم حتى كان النصر والظفر .

وعندنا أن خلود ابن تيمية وسطوع نجمه فى أفق العالم الاسلامى قد انبثق من هذه الوقفة الرائعة التى وقفها ضد التتار ، والتى انفرد بها عن سائر من سبقه أو عاصره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والفلاسفة ، والتى جعلته أشبه بكبار الصحابة الذين جمعوا بين الجهاد فى سبيل الله ونصرة رسوله ، وبين تعليم الناس وتفقيههم فى أمر دينهم ، وهو ما يجعلنا نبدأ قصة ابن تيمية بحديث التتار وحروبهم .

التتار يعودون الى دمشق :

وقف بنا نبأ التتار عند هزيمتهم على يد قطز فى معركة مرج دابق ٦٥٨ هـ ، وانحسرت موجة التتار عن مصر والشام ، ولكنهم ظلوا يسيطرون على العراق وفارس . وقد حدث تطور يشـــهد بمعجزة الاسلام ، فان هؤلاء المتبربرين ، لم يلبثوا أن دانوا بدين الاسلام ، حيث فشلت المسيحية نهائيا من أن تجتذبهم رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى هذا السبيل ، بل ورغم اعتناق بعض ملوكهم لها . ومن ناحية أخرى فقد كانت الديانة البوذية تسعى لاجتذابهم اليها ، وانتهى الأمر بغلبة الاسلام ، فاعتنق قازان أو غازان سلطان التتار دين الاسلام عام ٦٩٤ وأسلم غالب جنده وقواده .

ولذلك فان بعض المماليك المصريين والشاميين عندما اختلفوا مع اخوانهم ، لجأوا الى قازان عام ٦٩٩ هـ وحرضوه على احتلال الشام ، فتصدى له الناصر قلاوون فى جيشه عند بلدة سلمية بالشام ، ولكن الناصر قلاوون هزم وفر ناجيا بنفسه يتبعه جيشه ولم يشأ قازان أن يتعقب الجيش المنهزم .

ووجد الدمشقيون أنفسهم وجها لوجه أمام قازان ، عزلا من كل سلاح بعد أن هرب عنهم الجيش ، فسرى الهلع فى صفوف السكان ، وهنا تجلت زعامة ابن تيمية ، فقد راح يثبت جنان الأهالى المذعورين ، ويدعوهم الى عدم مبارحة المدينة والاعتصام برباطة الجأش والهدوء . وتالف وفد من القضاة والعلماء لمقابلة قازان ، وكان ابن تيمية على ماتقول بعض الروايات هو المتحدث باسم هذا الوفد . يصف لنا أحد الذين شهدوا هذا اللقاء فيقول : كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقوله ، الله ورسوله فى العدل ، ويرفع صوته ويقرب منه ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه ، وقد وقع فى نفس السلطان من هيبته الى الحد الذى جعله يسأل : من هذا الشيخ ؟ انى لم أر مثله ، ولا أثبت قلبا منه ، ولا أوقع من حديثه فى قلبى ، ولا رأيتنى أعظم انقيادا لأحد منه ، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل .

وكان مما خاطبه به عن طريق الترجمان : قل للقازان أنت تزعم انك مسلم ، ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذى عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت ، وجرت .

وقيل أيضا من أنباء هذه المقابلة ، أن الوفد لما حضر مجلس قازان ، قدم لهم الطعام فأكل أعضاء الوفد الا ابن تيمية فقيل له

لماذا لا تأكل ، فقال كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس .

وعندما طلب منه قازان أن يدعو له ، قال فى دعائه : اللهم ان كنت تعلم انه انما قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وجاهد فى سبيلك فأيده وانصره ، أن كان للملك والدنيا والتكاثر ، فافعل به واصنع ، وكان يدعو وقازان يؤمن على دعائه يقول بعض الذين كانوا فى صحبته : « ونحن نجمع ثيابنا خوفا من ان يقتل فيطرطش بدمه ، ثم لما خرجنا قلنا له : كدت تهلكنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال وأنا لا أصحبكم ، فانطلقنا عصبة ، وتأخر فتسامعت به الخواتين « الأميرات » والأمراء ، فأتوه من كل فج وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل الا فى نحو ثلثمائة فارس فى ركابه ، أما نحن فخرج علينا جماعة فنهبونا (١) .

موقف بطولى آخر لابن تيمية

وقد تحوى الرواية على هذه الصورة ، الكثير من التزويق والمبالغة ، ولكن الحقيقة المؤكدة ، أن ابن تيمية أخذ موقفا شجاعا فى هذه الأزمة ، ثم أبى التاريخ الا أن يبلغ به المدى فى هذا الميدان ، ميدان مواجهة التتار وحربهم فقد انسحب قازان من دمشق هذه المرة ، ولكنه لم يلبث أن عاد سنة ٧٠٠ هـ ، وكانت قد وقعت منهم فى غارتهم الأولى أعمالا شنيعة جعلت ابن تيمية يعتبرهم بغاة كفرة فجرة ، وليسوا بالمسلمين . ولذلك فقد أخذ على عاتقه عندما عاودوا الزحف على الشام أن يحرض على حربهم وقتالهم . وقصد الى مصر مندوبا عن الأمراء والشعب

(١) من كتاب القول الجلى ـ نقل محمد ابو زهرة فى كتابه « ابن تيميه » .

ليهيب بالناصر قلاوون أن يخف لنجدة الشام بجيشه ليقف معه أهل الشام جنبا الى جنب . وكأنه آنس من جانب قلاوون ترددا فقال له فى شدة : أن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ، ثم قال : لو أنكم لستم حكامه ولا ملوكه واستنصركم أهله لو جبت عليكم النصرة ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم .

ومازال ابن تيمية بالسلطان حتى خرج بجنده الى الشام مرة أخرى لملاقاة التتار .

وكان الفزع قد دب الى نفوس أمراء دمشق أثناء غياب ابن تيمية ، حتى وصل الأمر الى حد أن نادى منادى حاكم المدينة : « من قعد فى دمشق فدمه فى رقبته ، ومن استطاع أن ينجو بنفسه وما ملك فليفعل ، ومن لم يقدر على السفر فليطلع الى القلعة » ولكن ابن تيمية عاد قبل ان يحدث هذا النداء أثره المخرب ، فأعاد الطمأنينة الى صفوف أفراد الشعب ، وتسامع التتار بتصميم الشعب فى الشام على الثبات والمقاومة وقدوم جيش مصر لنجدتهم ، فآثروا الانسحاب .

موقعة شقحب والانتصار على التتار

على أن قازان جدد المحاولة للاستيلاء على الشام فأرسل عام ٧٠٢ هـ جيشا تحت قيادة أعظم قواده .

وتم لقاء جيش التتار بالجيش المصرى تحت قيادة قلاوون فى موقعة شقحب ، وفى هذه الموقعة لم يكن ابن تيمية هو الفقيه أو الواعظ أو المحرض على القتال ، بل كان المحارب الذى يمتشق الحسام ويضرب فى نحور الأعداء .

وطلب منه قلاوون أن يقف الى جواره فى المعركة فقال ابن تيمية : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام ولا نقف الا معهم .

وحث ابن تيمية الجنود على الافطار اذ وقعت المعركة فى شهر رمضان ، وكان يروى لهم قول النبى صلوات الله عليه فى غزوة الفتح : «أنكم ملاقوالعدو والفطرأقوى لكم» ، وكان يدورعلىالأجناد والأفراد يأكل أمامهم من شىء معه ليبين لهم أن افطارهم ليقووا على القتال أفضل لهم .

وكان النصر فى هذه المعركة لجيش قلاوون المصرى الشامى وانكسر التتار كسرة شنيعة حتى فقدوا تسعة أعشار جيشهم .

وفى تقديرنا أن بطولة ابن تيمية فى مواجهة غزوات التتار المتكررة ، هى التفسير الوحيد لهذا النفوذ الشعبى الروحى الذى وصل اليه ، بحيث هابه الأمراء والسلاطين ، وقد يصلون كما سنرى الى حد اعتقاله ، ولكن وسط الاكرام والاعزاز ، بحيث كان السجن بالنسبة له ، دار خلوة ودراسة وتأليف ، فاستطاع أن ينتج هذا الحشد من المؤلفات .

قضية الاجتهاد والتقليد

على أن قضية ابن تيمية التى استغرقت حياته كلها ، هى قضية ضد التقليد ، فقد كان الرأى قد استقر بين الفقهاء ، أن على كل مسلم أن يقلد مذهبا من مذاهب السنة الأربعة ، وأن يتمسك به فى كل فرع من فروعه وجزئية من أجزائه ، بحيث أن حاول الأخذ برأى مذهب خلاف مذهبه كان آثما . وفى الرد على ذلك يقول ابن تيمية :

« من تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء سواء تعصب لمالك ، أم لأبى حنيفة ، أم لأحمد بن حنبل ، ثم غاية المتعصب لواحد منهم ان يكون جاهلا بقدره فى العلم والدين وبقدر الآخرين ، فيكون جاهلا ظالما ، والله يأمر بالعلم والعدل وينهى عن الجهل والظلم ، فقال تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » . وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبى حنيفة وأعلمهم بقوله ، قد خالفاه فى مسائل لا تكاد تحصى لما تبين لهما من السنة والحجة ما أوجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك يعظمان أمامهما » .

وكان طبيعيا وهذا موقف ابن تيمية أن تكون له اجتهادات ـ أشرنا الى بعض منها ـ كاعتباره الطلاق ثلاث بلفظ واحد بمثابة طلاق واحد ، ونذكر الآن اجتهادا آخر فى موضوع الطلاق أهاج عليه ثائرة فقهاء عصره .

يمين الطلاق

هال ابن تيمية موضوع الطلاق ، وقد اتخذ يمينا يحلف به كما يحلف بالله . بيد أن الحانث فى يمين الله يكفر عنه بالعتق أو الصدقة ، أو صيام ثلاثة أيام ، أما أن حنث فى يمين الطلاق خرب بيته ، وطلقت امرأته وتقطعت العلاقة المقدسة التى يربطها الله بشرعه ، هالت هذه النتيجة ابن تيمية ، فبحث عن أصل لذلك ، فى الكتاب والسنة ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة وكبار التابعين ، فلم يجد ما يبرر قطع العلاقة الزوجية لمجرد الحلف والحنث ، وهو لم يقصد ايقاع الطلاق ولا أراده .

فلم يتردد ابن تيمية فى أن يفتى بأن الطلاق لا يقع به ، فلا يلزم الرجل بطلاق لم يقصده ولا توجد سنة أو نص من قرآن

يلزم بالطلاق مع عدم القصد ، فاذا احتج بطلاق الهازل وأنه يمضى عليه ، فان الرد على ذلك أن فى هـذه المسألة قد ورد نص عن رسول الله ، وليس كذلك فى موضوع الحنث فى يمين الطلاق . وواضح هنا أن ابن تيمية قد رفض الأخذ بالقياس ، لأنه اذا كان طلاق الهازل ينفذ ، بالرغم من أنه لا يقصـد طلاقا فمن باب أولى ، يكون طلاق من يحلف ويحنث .

وانفـرد ابن تيمية بهـذه الفتوى الجريئة التى خالف فيها المذاهب الأربعة ، وهاج الفقهاء وماجوا ، وحملوا السلطان على التدخل ، واستجاب السلطان لرأى الفقهاء ، فأمر ابن تيمية أن يتوقف عن الافتاء بهذه الفتوى . وصـدع ابن تيمية للأمر بعض الوقت ، ولكن ايثاره أداء واجبه الدينى ، جعله يعود لاصـدار الفتوى ، رغم حظر السلطان ، فأصدر السلطان أمره بسجن ابن تيمية ، ولكنه سجن الرجل المعظم المكرم ، الذى لا يلبث أن يخرج منه مرفوع الرأس موفور الكرامة .

معارك ابن تيمية ضد الصوفية :

ولم يكن ابن تيمية يبالى أن تـكون حربه فى جبهتين أو ثـلاث جبهات أو أربع ، فهو ليس رجل سياسة أو مداورة ، انه رجـل آلى على نفسه أن يعود بالدين الاسـلامى الى منابعه الأصيلة ، وما كان يجرى عليه العمل أيام السلف فاذا كان السلف الصالح من الصحابة يجتهدون فى الأحـكام الفقهية فاجتهـد وأن أغضب الفقهاء . ولـيرد على الشـيعة وأن أغضبهم ، ولـيرد كذلك على الصوفيـة والذين كان شأنهم قد علا وارتفع بعـد وفاة الغزالى الذى حمل مشعل التصوف عاليا ، وجعله هو الطريق الوحيد لمعرفة سبيل الله ، بعـد أن شجب المتكلمين والفلاسفة والباطنية على ما رأينا .

وكـان بعض أهل الطريق قـد انحرف عن طريق أهل السـنة فنادوا كما أشرنا من قبل بالحلول وفناء المخلوق فى الخالق ووحدة الوجود .

فقال بعضهم : ان الله لطف ذاته فسـماها حقا ، وكثفهـا فسماها خلقا .

وقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل : ان الله ظهر فى الأشياء حقيقة ، واحتجب بها مجازا ، فمن كان من أهل الحق والجمع شهدها مظاهر ومجالى . ومن كان من أهل المجاز والفرق شهدها ستورا وحجابا وقال فى قصيدة له :

لقد حق لى رفض الوجود وأهله   وقد علقت كفاى حقا بموجدى

وقال ابن عربى عقيب سماعه انشاد بيتى أبى نواس :

رق الـزجاج وراقت الخمـر   وتشـاكلا فتشـابه الأمـر
فكأنما خمـر ولا قـدح   وكأنما قـدح ولا خمـر

ليس صورة العالم ، فظاهره خلقه ، وباطنه حقه .

وقال بعض الصوفية : عين ماترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى ، والله فقط والكثرة وهم .

وجاء عن الحلاج :

سـبحان من أظهر ناسوته   سرسـنا لاهوته الثـاقب
ثم بدا مسـتترا ظاهـرا   فى صـورة الآكل الشـارب

ولـه :

عقد الخلائق فى الاله عقائدا   وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

الى غير ذلك . وفى موضوع الاتحاد بالله يقول ابن الفارض :

جعلت فى تجليها الوجود لناظرى وفى كل مرئى أراهـــا برؤيتى
واشهد عينى اذ بدت فوجدتنى هنا لك اياها بجلوة خلوتى
وطاح وجودى فى شهودى وغبت عن وجود شهودى ماحيا غير مثبت
وعانقت ماشاهدت فى محو شاهدى بمهده للصحو من بعد سكرتى
ففى المحو بعد الصحو لم اك غيرها وذاتى بذاتى اذ تجلت تجلت

وتصدى ابن تيمية لذلك كله (١) .

ولكن ابن تيمية اذ تصــدي لمحاربة الصوفية ، فقد كان يرتطم فى عصره بصـــخرة عاتية ، فقــد كان للصوفية ابتداء من عصر صلاح الدين شأن واى شأن ، فلمـــا أن جاءت دولة المماليك ، أصبحت الصوفيـــة والتبرك برجالها ديدن الســـــلاطين والأمراء ، فأنشئت لهم التكايا التى كان يطلق عليها اسم خانقاه ، وأوقفت عليهم الأوقاف ، وقــد أنشأ قلاوون وكان من المعتقـــدين برجال الطـــريق خانقاه سرياقوس المشـــهورة ، فلا عجب أن اســـتطاع المتصوفة فى آخر المطاف أن يغيروا قلب قلاوون على ابن تيميـــة وأن يحملوه على اصدار أمره بالقبض عليه واعتقاله .

زيارة القبور والتوسل بالأولياء :

وكان ميدان المعركة الذى جرى فيه التصادم بين المتصوفة وأصحاب الطريق ، عنــدما أعلن ابن تيمية استنـــكاره للتوســـــل بالأولياء ، وحظره بناء المساجد حول قبـــور الأولياء واعتبـــاره

الصلاة فى هذه المساجد باطلة ، ودعوته الى هدم القباب المقامة فوق قبور الأولياء .

وعندما وصل ابن تيمية الى حد تطبيق هذه القاعدة على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتوسل بجاه رسول الله ، هنا وجد المتصوفة المقتل الذى يصيبون فيه ابن تيمية ، وأن يؤلبوا العامة عليه ، ويشيعوا عنه الشائعات من أنه يتهجم على رسول الله ، ويقول لنا ابن بطوطة الذى زار دمشق فى هذه الفترة أنه سمع ابن تيمية يقول على المنبر ان الله ينزل فى سماء الدنيا ، كما انزل عن منبرى هذا (ونزل درجة) . ويكذب أنصار ابن تيمية ابن بطوطه فى هذا القول .

ومن عجب أن هذه الناحية من آراء ابن تيمية وتعاليمه ، هى التى لاتزال حتى اليوم تثير الجدل حول شخصه كأعنف مايكون الجدل ، وينقسم المسلمون فرقتين ، فريق يرى فى ابن تيمية خارجا على اجماع الأمة متهجما على الاسلام ، فيحاربونه ويحاربون كتبه وتعاليمه وتلامذته . وقسم يرتفع به مكانا عليا ، لم يسبقه اليه سابق أو يلحق به لاحق ، ويتخذون من أقوال ابن تيمية كلها وتعاليمه مبدأ ونبراسا لا يحيدون عنه ، ويقلدونه فى كل أقواله وأفعاله ، وهو الرجل الذى حارب التقليد .

وما سافرت للحج فى أى سنة من السنوات ، الا وكان موضوع ابن تيمية والجدل حول أفكاره هو محور الكثير من الندوات . فالمذهب الوهابى الذى يقوم فى الحجاز ونجد ، يستند فى الدرجة الأولى على غضبة ابن تيمية ضد التوسل وتشييد القباب على قبور الأولياء . وقد أثار الوهابيون من أتباع محمد بن عبد الوهاب العالم الاسلامى ، بهدمهم القباب المقامة على قبور الصحابة ، وشروعهم فى هدم القبة المقامة على قبر رسول الله ، فكانت

الحروب التى اشتعلت والتى قادتها مصر فى ذلك الوقت بتكليف من الدولة العثمانية أيام محمد على .

وقد تجدد الخلاف مرة ثانية كأعنف ما يكون ، عندما نجح الوهابيون مرة أخرى تحت قيادة الملك عبد العزيز آل سعود فى احتلال الحجاز مرة ثانية عقب الحرب العالمية الأولى ، ولولا حصافة الملك عبد العزيز واعتداله ، لثارت ثائرة العالم الاسلامى مرة ثانية ضد الوهابيين .

لندع ابن تيمية يتكلم عن نفسه :

وليس هناك ما يجلى به شخصية ابن تيمية ويعرض آراءه ، خيرا من أن ندعه يتكلم عن نفسه ، ويصور محنة السجن التى تعرض لها ، وسننقل سطورا من كتاب « محنة شيخ الاسلام ابن تيمية » تحقيق حامد الفقى . وهذا الذى ننقله هو من رسالة بعث بها الى بعض الأشخاص الذين كانوا يتوسطون بينه وبين السلطان ، للافراج عنه من السجن وقد جاء فى هذه الرسالة :

« فسلم عليه وتقول له : ان هذه القضية ليس لى فيها غرض معين أصلا ، ولست فيها الا واحدا من المسلمين ، لى ما لهم وعلى ما عليهم — وليس لى ولله الحمد — حاجة الى شىء معين يطلب من المخلوق ، ولا بى ضرر يطلب زواله من المخلوق ، بل انى فى نعمة من الله سابغة ، ورحمة عظيمة أعجز عن شكرها » .

طاعة أولى الأمر :

ولكن على أن أطيع الله ورسوله ، وأطيع أولى الأمر اذا أمرونى بطاعة الله ، فاذا أمرونى بمعصية فلا طاعة لمخلوق فى معصية

الخالق ـ هذا ما دل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه أئمة الأمة .
يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .
(النساء ٥٨)

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الله وانما الطاعة فى المعروف » وأن اصبر على جور الأئمة وأن لا أخرج عليهم فى فتنة لما فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه ، فان من فارق الجماعة قيد شبر فمات ، الا مات ميتة جاهلية » .

ومأمور أيضا مع ذلك أن أقول وأقوم بالحق حيثما كنت لا أخاف فى الله لومة لائم . جاء فى الصحيحين عن عبادة ابن الصامت قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى يسرنا وعسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول ـ أو نقوم ـ بالحق حينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ، فبايعهم على هذه الأصول الثلاثة الجامعة : وهى الطاعة فى طاعة الله . وترك منازعة الأمر أهله ، والقيام بالحق بلا مخافة من الخلق .

والله سبحانه وتعالى قد أمر فى كتابه عند تنازع الأمة بالرد الى الله ورسوله .

وقد قال الأئمة : ان أولى الأمر صنفان ـ العلماء والأمراء وهذا يدخل فيه مشايخ الدين وملوك المسلمين ، كل منهم يطاع فيما اليه من الأمر ، كما يطاع هؤلاء فيما يأمرون به من العبادات ، ويرجع اليهم فى معانى القرآن والحديث والأخبار عن الله ، وكما

يطاع هؤلاء فى الجهاد واقامة الحدود ونحو ذلك مما يباشرونه من الأفعــال التى أمرهم الله بها ، واذا اتفق المسلمون على أمر فاجماعهم حجة قاطعة ، فان أمة محمد لا تجتمع على ضــلالة وان تنازعوا فالمرجع الكتاب والسنة .

ابن تيمية ينتهر الوسيط .

ثم يحدثنا ابن تيمية فى رسالته عن الوسيط الذى جاء اليه فى السجن يحاول اقناعه بالعدول عن آرائه تمهيدا للافراج عنه ، فيقول فى هذه الرسالة :

فلما رأيته يلح فى الأمر بذلك ، أغلظت عليه فى الكلام ، وقلت دع هــذا الفشار ، وقم رح الى شغلك ، فأنا ما طلبت منكم أن تخرجونى ، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذى يدخل منه الى باب المطبق (أى السجن) فقلت أنا افتحوا الباب حتى أنزل — يعنى فرغ الكلام .

وجعل غير مرة يقول لى : أتخالف المذاهب الأربعة .

فقلت : أنا ما قلت الا ما يوافق المذاهب الأربعة ولم يحكم على أحد من الحكام الا ابن مخلوف وأنت كنت ذلك اليوم حاضرا عندما قلت له :

— أانت تحكم على أم هؤلاء ؟

— أنا وحدى .

فقلت له : انت خصمى فكيف تحكم على

فقال كذا ، ومد صوته وانزوى الى الزاوية وقال : قم ، قم ، فأقامونى وأمروا بى الى الحبس . ثم جعلت أقول أنا واخوتى غير

مرة ، أنا أرجع وأجيب وان كنت أنت الحاكم وحدك ، فلم يقبل ذلك منى ، فلما ذهبوا بى الى الحبس ، حكم بما حكم به وأثبت ما أثبت وأمرنى الكتاب السلطانى بما أمر .

فهل يقول أحد من اليهود والنصارى — دع المسلمين — ان هذا حبس بالشرع ، فضلا عن أن يقال شرع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

موضوع الاستواء

وراح ابن تيمية فى رسالته يناقش موضوع استواء الله على العرش وهل هو حقيقة أم جاء على سبيل المجاز ، وعند ابن تيمية أنه حقيقة ، وراح يؤيد قوله بأقوال السلف حتى أفحم محادثه الذى قال :

— نعم هو مستو على العرش ، حقيقة بذاته ، بلا تكييف ولا تشبيه

فقلت نعم وهكذا هو فى العقيدة

فقال : فأكتب هذه الساعة ، وقال : التزمه أو نحو هذا .

فقلت : هذا مكتوب بهذا اللفظ فى العقيدة التى عندكم التى بحثت بدمشق واتفق عليها المسلمون ، فأى شىء هو الذى أزيده

عفو ابن تيمية عمن أساء اليه

وبعد مراجعات ، طلب الوسيط من ابن تيمية أن يتعهد بالعفو عمن أذاه ولا يتعرض لأحد .

فقال : نعم هذا أنا مجيب اليه ، فليس من غرضى ايذاء أحد ولا الانتقام منه ولا مؤاخذته وانا عاف عمن ظلمنى ـ وأردت أن أكتب هذا ، ثم قلت : مثل هذا لم تجر العادة بكتابته ، فان عفو الانسان عن حقه لا يحتاج الى هذا (١) ٠

التوســــل بالنبى

أما بالنسبة للمحضر الذى قدم به الى الشام الى ابن مخلوف ، فيما يتعلق بالاستغاثة بالنبى صلى الله عليه وسـلم ، ان اظهروه كان وباله عليهم ، ودل على أنهم متشككون لا يفرقون بين دين المسلمين ودين النصارى ، فان المسلمين متفقون على ما علمـــوه بالاضطرار من دين الاسلام ، أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ولا يستغيث ، ولا يتوكل الا على الله ، وأن من عبد ملـــكا مقربا ، أو نبيا مرسلا أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك ٠ فـــــلا يجوز عند أحـــد من المسلمين أن يقول القائل : يا جبريل ، أوياميكائيل ، أو يا ابراهيم ، أو ياموسى ، أو يارسول الله : اغفر لى وارحمنى ، أو ارزقنى أو انصرنى ، أو أغثنى او اجرنى من عدوى ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خصائص الألوهية ، وهذه مســائل شريفة معروفة قد بينها العلماء ، وذكروا الفرق بين حدود الله التى تختص بها ، والحقوق التى له ولرسله كما يميز سبحانه بين ذلك فى مثل قوله : وتعززوه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (الفتح ٩) فالتعزيز والتوقير للرسل والتسبيح بكرة وأصيلا لله ٠

قال تعالى : وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا ٠

---

(١) استعلى ابن تيمية بالعفو على خصومه ، فقد جاءت المناسبة التى لو قال فى حقهن كلمة لقطعت رؤوسهم ، فلم يقل فيهم ابن تيمية الا خيرا ـ يقول ابن مخلوف الذى قضى بسجنه : ما رأينا أفتى من ابن تيمية ، سعينا فى دمه فلما قدر علينا عفا عنا (ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى) ٠

ويمضى ابن تيمية مستشهدا بالعديد من آيات القرآن التى تفرد الله بالعبادة ، ثم يعلق قائلا :

فمن اتخذ الملائكة والنبيين أربابا ، فقد كفر بعد اسلامه باتفاق المسلمين ، ولأجل هذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ المساجد على القبور ، وأن يجعل لله ندا فى خصائص الربوبية ، ففى الصحيحين أنه قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر مما فعلوا .

وفى الصحيح عنه أنه قال : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك » .

ولهذا قال العلماء : من زار قبر النبى صلى الله عليه وسلم فانه لا يستلمه ولا يقبله ، ولا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق الذى يستلم ويقبل منه الركن الأسود ، ويستلم الركن اليمانى ، ولهذا اتفق العلماء على انه لا يشرع تقبيل شىء من الأحجار ، ولا استلامه الا الركنان اليمانيان ، حتى مقام ابراهيم الذى بمكة لا يقبل ولا يتمسح به ، فكيف بما سواه من المقامات والمشاهد .

ثم يرفع ابن تيمية عن نفسه مظنة أنه يغض من شأن رسول الله كما يتخرص عليه المتخرصون ، فيقول : وأما حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم — بأبى هو وأمى — مثل تقديم محبته على النفس والأهل والمال ، وتعزيزه وتوقيره واجلاله وطاعته ، واتباع سنته وغير ذلك فعظيمة جدا ، وكذلك ما يشرع التوسل به فى الدعاء كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه : أن النبى صلى الله عليه وسلم علم شخصا أن يقول : اللهم انى أسألك وأتوسل اليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد ، يا رسول الله انى اتوسل بك الى ربى فى حاجتى لتقضيها ، اللهم فشفعه فى ، فهذا التوسل به حسن ، وأما دعاءه والاستغاثة به فحرام . وختمت الرسالة بخط شيخ

الاسلام على ما يقول محقق الكتاب · وقـد جاء فيها : وتعرفه أن الأصل الذى تصح عليه الأمور هو رجوع كل شخص الى الله وتوبته اليه فى هـذه العشر المبارك ، فاذا أحسنت السرائر أصـلح الله الظواهر ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون · وهـذه قضية كبيرة ، كلما جاءت تزداد ظهورا وانتشارا ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

وفـاة ابن تيميه

وفى ليلة الاثنين العشرين من شـهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ انطلقت روح ابن تيمية من سجنيهما وقيديهما ، قيد الجسد والسجن وصعدت الى بارئها الأعلى راضية مرضية مطمئنة مغتبطة ، فقد كان يقول عن مقامه فى السجن :

« قد فتح الله على فى هذا الحصن فى هـذه المدة من معانى القرآن ، ومن أصـول العلم ، بأشياء كثيرة كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن ·

وكان يقول فيما نقلـه عنه تلميذه العظيم ابن القيم : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، كما كان يقول : ما يصنع أعدائى بى ، أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أين رحت فهى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، واخراجى من بلدى سـياحة ·

والقضايا ماضية

ومات ابن تيمية الذى كانت حياته شعلة علم متقـدة ، والذى آثار فى كل يوم قضية · فهل انطفأت شعلة العلم ، أو هل توقفت ريح القضايا أو يمكن أن تتوقف ؟

قد يتصور أن تتوقف معارك السيف والمدفع ، أما معارك الرأى والفكر فلا يمكن أن تتوقف أبدا ، مهما أصبح الناس أمة واحدة ، حتى لو أصبح الكون فى ظل حكومة عالمية واحدة توقف الحروب والمعارك ، فانها لن تستطيع أن توقف قضايا الرأى ، بل ماينبغى أن يفكر الانسان ولو فى خياله أن تقف هذه القضـــايا .. فان الحضارة الانسانية ، والتطور الانسانى المبدع الخلاق ، ليس الاثمرة الفكر ، والاختلاف فى مناهجه ، والنظر الى أى موضــــوع من الموضوعات من العديد من الزوايا ، وعـلاجه بمختلف الأســاليب والطرق .

ما من اختراع أو كشف الا وهو نتيجة الخروج على المألوف ، والتطلع الى الجديد ، وغير المطروق .

فلو كف العقل عن التطلع ، ولو كف العقل عن التأمل والتفكر ، ولو كف العقل البشرى عن المخالفة والمنازعة فى المسلمات ، لما زاد الانسان عن أن يكون من نوع الحيوان ، يأكل ويشرب ويتناسل حتى يأتيه الموت فى رتابة مملة .

وليس سوى الفكر ما يثرى حياته ، ويلونها ويزينها ، ويسمو بها ، ويعلو به من درجة الى درجة ، ومن سماء الى سماء .

قضايا العصر الحديث

ومن هنا فنحن فى حاجة الى كتاب مماثل ، ليسرد لنا قضايا الرأى فى العصر الحديث الذى يتصل بنا ، عند ما قام جمال الدين الأفغانى يجدد شباب الاسلام مرة أخرى على ضوء العقل والحرية والاجتهاد ... وتلامذته الكبار من أمثال محمد عبده وتلامذتــه وأصحابه من أمثال قاسم أمين ومصطفى كامل وسعد زغلول .

وبعـــد ٠٠

وبعد ، فلعلك قد وجدت فيما مر عليك مصداق ما قلته لك فى مقدمة هذا الكتاب ، من أن أى باحث لن يستطيع أن يفهم ما يغص به العالم الاسلامي اليوم ، من تيارات ،الا اذا رجع الى جذور ذلك وبذوره فيما مضى من قرون ،فليس الحاضر ســـوى امتداد الماضى وثمرته ٠

واذا كان المسلم يـــرى فى عصرنا الحديث المحافظين الذين يزورون لكل تغيير ، وينكرون كل تطور ويعتبرونه خـــروجا عن الدين ، ومروقا منه ، واذا كان يجد المتمسكين بالنصوص لايرضون تأويلها أو تجريحها ، ويرون فى ذلك كبرى الكبائر ٠

وفى الطرف المقابل ، من يتحللون من النصوص جملة ويدعون الى تحكيم العقل ، واذا وجدت العالم الاسلامى على اتساعه ، وفى وطنك المحلى بالذات يغص بعشرات بل مئات من المذاهب والنحل، ممن يطلقون على أنفسهم أهل الجماعة والسنة ، أو شـــيعة بيت رسول الله ، أو كانوا من غير هؤلاء وهؤلاء كالدرزية ، والقديانيـــة واسماعيلية أغا خان ، أو هذه النحلة الجديدة من مسلمى الولايات المتحدة الأمريكية ، فلا يضيق صدرك ، ولا تخشى خطر ذلك على الاسلام ، فهو حبل الله المتين والذى صمد كما رأيت لشتى صنوف المحن التي تألبت عليه من الداخل والخارج ، كما مر بك ، وخرج فى كل مرة وهو أعز جانبا ، وأصفى بيانا ٠ وذلك بفضل القرآن والسنة ٠ والقرآن هو كتاب الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبقاؤه محتفظا بنصه الذى نزل به منذ أربعة عشر قرنا هو آية اعجازه ، وبرهان ألوهيته ، حيث صدق فيه وعـــد الله العظيم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظـون » (الحجر ٩) فليس للمسلمين على اختـلاف شعبهم ومـــذاهبهم

ونحلهم وتباعد أزمانهم وبقاعهم سوى كتاب واحد وهو القرآن العظيم ، المنشور والمطبوع والموزع بالملايين بنص واحد فى سائر أرجاء العالمين .

وليس للمسلمين سوى نبى واحد يشهد له المؤذنون من فوق المنائر ، وهو سيدنا محمد صلوات الله عليه .

وليس لهم سوى قبلة واحدة يتجهون اليها فى صلاتهم ويقصدون اليها فى حجهم ، وبعض هذا يوحد بين القلوب ، ويربط النفوس فكيف بها مجتمعة .

وفى وسط التيارات والأعاصير المذهبية الحديثة يقف الاسلام بتعاليمه مرة أخرى كالطود الشامخ حيث يجد لكل سؤال جوابا ، ولكل مشكلة حلا مطبوعا بطابع الاسلام الخالد الذى جعله دين الانسانية كلها ، وهو طابع الوسطية ، أى الوسط فى كل شىء . فلا دين بغير دنيا ، ولا دنيا بغير دين ، ولا مادة بغير روح ، ولا روح بغير مادة ، ولا افراط ولا تفريط ، ولا انحراف نحو اليمين أو نحو اليسار ، وانما هو الاعتدال والميزان فى كل ما يتصل بشئون البشر مما فصلناه فى كتابنا الاسلام وسوله بلغة العصر ، فليرجع اليه من شاء المزيد .

ولن نجد ما نختتم به هذا الكتاب عن قضايا الرأى فى الاسلام، بل وما يجب أن يختتم به أى كتاب يتحدث عن الفرق والمذاهب والمعتقدات فى الاسلام ، سوى نصيحة رسول الله الغالية ، التى تزودنا بالدستور والمنهاج ، وطريق النجاة من كل كرب مادى أو معنوى وذلك هو قوله : « تركت فيكم ، ما أن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله ، وسنة رسوله » ..

والحمد لله رب العالمين ..